

ماذا تعني لك الحياة؟

الطبعة الأولى

١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

اسم العمل:	ماذا تعني لك الحياة؟
اسم المؤلف:	د. ألفريد أدلر
ترجمة:	رزان بشور
تصميم الغلاف:	محمد علي
الإخراج الداخلي:	عمر أسامة
رقم الإيداع:	٢٠٢٤ / ١٥٧٦٨
الترقيم الدولي:	٩٧٨-٩٧٧-٨٩٩٩-٢٧-٣



شارع ونس - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية - مصر



01020439639



massar.pub1@gmail.com

مَسَار
للنشر والتوزيع

جميع الحقوق الخاصة بالتنسيق الداخلي، وتصميم غلاف هذا الكتاب، والترجمة الخاصة بدار مسار محفوظة، ولا يسمح بإعادة استخدامها دون الحصول على تصريح خطي من الناشر. ملكية حقوق الطبع والنشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

ماذا تعني لك الحياة؟

د. ألفريد أدلر

مَسَا
الشر و النور

الفصل الأول

معنى الحياة

تُحوَّلُ الأسئلةُ باحثةً عن إجابات غير مُبرَّرة، وتبحث العقول عن تفسيرات مُبهمّة؛ لتزيل الغِشاء عن وَهْم المعرفة، فيأتي القلب بتفكيره محاولاً الإجابة بقدر المستطاع، لكنه يغفو عابراً بين أزقة الكلام، فلا يجد إقناعاً للعقل.

يعيش الإنسان بروحه، وعقله، وجسده البالي، ساعياً لمعرفة أين يعيش؟، ولماذا يعيش؟ كل تلك السنوات الماضية والآتية في هذه الحياة، فيسأل نفسه مخاطباً: ما هي الحياة؟، وما الهدف من المعيشة على الأرض؟

قد تبدو الإجابات سهلة، لكنها بغاية التعقيد، وبعيدة كل البعد للمجازفة بالكلام، فيدرك الإنسان آجلاً غير عاجل هدفه بالبقاء هنا حياً بأفكاره التي تنبض، ويسعى إلى زرع مبادئ وأفكار تبدأ من طفولته، ثم ريعان شبابه، وصولاً إلى رفع يده لإلقاء سلام الوداع للحياة.

تختلف معاني الحياة لكلِّ منا؛ فهذا يرى الحياة بضعة أيام، وآخر يراها كومة سنين لا بُدَّ أن يعيشها شاء أم أبى، وأما عن ذلك فيُلقي دروسًا نحو ماهية الحياة بالمنطق والشعور، ولا أعلم أنت أيها القارئ ماذا تعني الحياة لك؟

في هذا الكتاب، وأنت تقلِّب أوراقه -بدايةً من الفصل الأول لتفسير معنى الحياة وختامًا بالفصل الأخير- أريدك أن تجيب على سؤالِي بصدق: يا تُرى، ماذا تعني لك الحياة؟ إنني لا أطلب منك الاستعجالَ في إلقاء الإجابة، تريث، وخذ نفسًا عميقًا؛ لتعطيني ما يُقنعني بما يدور في ذهنك، سأساعدك بعدم التلُّف إلى أن الحياة مال، صديق، سيارة أو عمل؛ فالحياة أعمق بكثير من كل ممتلكاتها، فقد تكون أنت الحياة ذاتها دون الاستشعار والوعي بذلك، وقد أكون أنا الحياة بما فيها في عين غيري، أما بما نفسره نحن -علماء النفس- عن معنى الحياة، هذا الذي أريد الارتقاء إليه

ببساطة.

ما فوجئتُ به وأنا جالس.. سؤالٌ جاء لذهني كعاصفةٍ
رعديّةٍ لم يُثر ضجيجُها سمعَ السائل، وبان له كأنَّ سؤالَه
تقديمُ جرعةٍ ماءٍ لغير طالبِها، بينما كانت - جرعة الماء -
لروحي كجرعةٍ دواءٍ لمرضٍ لم أدرِ عن وجوده وآلامه بين
أضلاعٍ روحي .

ماذا تعني لي الحياة؟!

بين خطواتي الأولى في المسير، لم تكن تعني الحياة لي سوى
الركض نحو يدها لتضميني لصدرها، وأن تبسم لضحكةٍ
من أسنان لم ينبت زرعُها بعدُ، أو لشموخي عندما يحملني
على كتفيه مارًا بي في كل أزقة الشوارع.

أتقنتُ المسير، والضحك، والكلام، وكم كانت بهجتي
حين سمعتُ تصفيق جمهوري لغنائي، أو لإلقاء أبيات

شعري المبعثرة والمتناثرة، والتي أختتمها بأغنية لا أعلم
جديّة معانيها!!

ها هو يومي الأول في الروضة، ولم أرَ من الحياة سوى
رؤوس تقترب مني، ضاحكةً ساخرةً من وِحدتي، وكأنني
كرةٌ في ملعب كبير اختفى أهمُّ لاعبيه وتركوني وحيدةً في
مباراةٍ فريقيها أنا، والفريقُ المقابل الدُّنيا، لم يستمر هذا الحال
سوى يومين، وبعدها بُتُّ أنا أهمَّ لاعب في هذه المباراة.

تمضي الأيام بحُلُوها، فلم أرَ من مُرّها أكثر من النوم
باكية؛ لفقدان دُميتي، فلم يكن يثير أمواج قلبي أي ريح،
وكان قاربي يسير ببحر هادئ يُحَلِّق فوقه سُنونو عدنان
ولينا، ولم أكن أرى سعادتي سوى كسعادة هايدي عندما
تركض خلف خرافِها.

نضجتُ قليلاً ولم أرَ نفسي بنهار الحياة إلا كفارس لا يثني
سيفه أيُّ مقاتل، وفي ليله يُبحر مع فارسته، ومع أحلامه

الوردية، فمن نعومة أظفاري وأنا في انتظار ذلك الفارس
الذي ضلَّ طريقه، ولم يجد لها حينه.

كم كانت الحياة بَارَقَ بل وأدقَّ معانيها أينما حللتُ
وذهبتُ!! كنتُ أنا النجمة التي لا يرى الآخرون سواها،
وسوى جمالِ إشعاعها، ولا أخفي قولاً.. كان ذلك الشعور
يبث بعضاً من لمسات الغرور - التي كنتُ أستحقها - إلى
نفسي.

باتت الحياة لي كالمرح الذي عندما أصد على خشبته لا
أرى منه سوى عيونٍ دامعة أو مبتسمة تنتهي بتصفيقٍ يُشعل
نوتات قلبي؛ لتعزف أجمل أغنية.

ها أنا أقترُب من حلم يكبر كل لحظة، ويكبر لأكون تلك
الطبيبة، الجميلة، البارة، التي ترى جمال الحياة بعيون مَنْ
تُزهر أيامهم من جديد من سُقياها، ولكن كبر هذا الحلم
حتى انفجر كبالونٍ هواء، ولم أر نفسي إلا على مقاعد بين

الرموز، والعناصر الكيماوية.

تلك الأيام لم تكن تعني لي الكثير سوى الضحك،
والهراء، واللهو هنا وهناك، فلم أعطِ للحياة قَدْرَها،
حسابها، معناها، تجري مياه هذا النهر لِتُفاجَأَ أنها على شُطآنِ
بحر جافٍّ وبانت كلُّ مَعَالِمِهِ.

وها أنا قد بدأت أصطدم بصخور الواقع بعد تخرجي
الذي كان كصعودِ جبلٍ شاهقٍ، لا يخلو من الدحرجة، ولم
ينتج عن وقوعي سوى نُدباتٍ ما لبثتُ أن زالت في حينها.
كم عَنَت لي تلك النقود التي اجتَرَرْتُها من سنام عملي!،
ولَکُم لم تكن هدفي بمقدار ما أناله من إطراء من هنا،
وإعجاب من هناك، فما زلت من وقتها تلك النجمة، بل
وازدادت لمعاناً وإبهاجاً.

ككائن بشري يتنفس على هذه الأرض، يحاول النهوض من حفرة أوقعته بها تجارب الحياة، تحيط به الأساءة ومعانيها، فيتوقف عقله بُرْهَةً؛ ليدرك لاحقاً أن كل شيء ملموس يمتلك معنى، سواءً أكان ذا قيمة باهظة أم لا، فالحجر المرمي بين زوايا الشجرة تلك إذا أمعنا النظر فيه سنجد أنه يمتلك معنى القسوة والصلابة؛ لأنه فرض على نفسه عُنْوَةً أن يتسع في فضاء الحياة، فكلمة "معنى" بحد ذاتها هي مملكة للأخطاء؛ إذ إنها تمنح لشخص عديم الحظ مصطلح أن لا قيمة ولا معنى له؛ فيحوم ليعزل نفسه عن الآخرين، متكئاً على مفردات كفيلة بأن تجعله هو الإنسان الكئيب المجرد من مقومات الحياة، فتتراود على ذهنه أفكار مؤداها أن المعنى لم يكن على صواب دائماً؛ لأنه ما هو إلا شيء لم يتم بعد، فلورمينا حجر نرَدٍ على أحدهم لنوقظه من غفلته قليلاً، وسألناه: ما معنى الحياة؟، سؤال سهل ممتنع

قد تناوله الجميع على مائدة الكلام منذ القدم، وأعنيها حتماً حين عجز الكثير منا -نحن البشر- عن فهم معنى الحياة. لربما تتقيد أيدينا عن الإجابة عن ذاك السؤال الذي حير عقولنا، وجعلنا نتدبر كثيراً، ونحن نبحث عن رمقة تروي عطش الفضول، وتشفي غليل الروح.

توالت الأيام حتى سَلَّم جيلٌ الجيلَ الآتي؛ لبحث عن معنى الحياة بالفعل، فتكثُر التنهيداتُ، وتحوّل العيونُ؛ لتكشف عن مفهومها الدفين.

على ما يبدو أن معظم البشر لا يُصدِّعون رؤوسهم للتفوه بمثل هذه المواضيع، وحتى كبار السن باتوا يطالبون بمعرفة حقيقة الأمر، لذلك يجب أن نُصمَّ آذاننا لبعض الوقت، ونُبقي أعيننا مركزة نحو هدف الإجابة عن ما معنى الحياة؟ سينتفض كل فرد حينها للإجابة، مُجدِّداً ومُشكِّلاً معادلةً خاصة به، وبناء على ذلك سنلاحظ الآتي:

كل الآراء، والمعتقدات، والعادات، والتصرفات،
والتحركات، تتفق تماماً مع المعادلة التي شكلوها بأنفسهم؛
لأن كل شخص يعتمد حسب منظوره على معنى محدد
للحياة، وكل ردود أفعاله تقف جنباً إلى جنب، وصفاً إلى
صفٍّ لفهم العالم ونفسه والحياة، وكأن مطرقة قاضي الحياة
تُعلن الاستعداد للحكم النهائي.

إن الشيء الواحد الذي نتفق على تسميته يحمل معنى
واحداً، وكما ورد سابقاً قد يحمل المعنى الصواب والخطأ في
طَيَّاته، فلا يمكن لأحد على الإطلاق تقديم المعنى الجازم
لمفهوم الحياة، سواء أصاب بقوله وفهمه أو أخطأ، فجلُّ
الخطأ الاعتراف به وإدراكه.

إن مثلث الحياة بزواياه المنحرفة والقائمة على مصطلحات
تبعثرت في طَيَّات القواميس تقوم على مَهَامٍ ثلاثٍ، كل منها
تكمل الأخرى، بل تتنازع للبقاء معاً، أو تفر هاربةً نحو

الصمود والصعود للقمة، تلك الزوايا الثلاث للحياة أريد أن أسميها بمهام الحياة.

قد تتوه يَمَنَةً؛ لتبحث عن الإجابة، فلن تجدها، وكذلك يَسْرَةً، حتى وإن أمعنت النظر جيداً في فحوى مراميها.

إن كل البشر تحت ظروف اضطرارية رئيسية تُعيق أهدافهم، وحقائقهم، وأحياناً تصدمهم، فتنبع تحت مظلة الحياة ثلاثة ظروف تهبط اضطرارياً:

الظرف الاضطراري الأول:

على هذا الكوكب الأرضي الصغير الذي يوفر لنا موارد نحن بأمس الحاجة إليها يأتي دورنا لتطويرها وتمجيدها، فلا يمكننا الاستغناء عنها، وكي نواكبها يتوجب علينا تطوير عقولنا، وطريقة تفكيرنا؛ لنستخدمها أحسن استخدام ضمن حدود معارفنا، بالإضافة لذلك يجب أن نمضي قُدماً

نحو أجسامنا؛ لتفادي وقوعها فريسة التطور والتقدم.
دعنا الآن ندرس معاً نقاط ضعف البشر؛ خاصة الجسم
الذي ستهرم أعضاؤه بالعيش في هذه الحياة، ولكن أولاً
يتوجب تقييم إجاباتنا؛ لتكون أكثر وضوحاً، وأكثر دقة؛
ليستوعبها العقلُ تماماً، مثل مسائل الرياضيات التي تنتظر
الإجابة الصحيحة أن تكون مرسومة عند خانة النتائج.

لذلك لن ينفع التخمين لحل تلك المسائل، بل الأكثر
نفعاً هو المحاولة لإيجاد حل منطقي يشفي الغليل لحل
المسألة المعقدة.

بالكاد لن يكون الحل التقريبي هو الأكثر جدوى، بل
الصواب الحقيقي هو الذي سيغمر النقاط الضعيفة لدينا
للتنحي جانباً.

لن أعقد الأمر أكثر مما هو عليه، الأمر بسيط، ولكنه

يحتاج إلى تحديد الهدف؛ لتلافي الاضطراب الذي يحصل
بيننا وبين الأيام التي نعيشها.

قد تكون صفحات هذا الكتاب - بدايةً - مجدولةً بسبلات
التخمينات والاعتقادات، ولكن بالأسطر القادمة ستُفتح
لك أيها القارئ صفحات تفوح بعبق تفكيرك الذي يدور
في دوامة الأسئلة.. لا عليك، ترقّب الآتي؛ لتفهم أكثر ما
الذي أعنيه، وتحلّي بالصبر أكثر.

الظرف الاضطرابي الثاني:

إن البشر مترابطون مع بعضهم البعض كجسد واحد،
فإن ضعفت قدرات فرد من البشر ستراجع القدرات لبقية
الأفراد من حوله ضمن الانعكاسات التي تكرست بين
بعضهم البعض.

دعني أطرح هذا المثال أرضاً؛ إن الضعف المتميز الذي

يدفع الإنسان للعيش وحيداً سيمنعه من التفكير نحو المشاركة والانخراط المجتمعي مما سيؤول به إلى الفناء.

بما أن البشر مترابطون مترابطون كحلقة تصطفُّ حبات الخرز فيما بينها، فإنه من الصعب العيش وحيداً في جنة الأرض لإعمارها، وبالتالي دون سابق إنذار، سيُحكَم على الحياة بالإعدام وعدم الاستمرار.

إن أعظم منحة يقدمها الإنسان لغيره هي نعمة الزمالة، والبقاء معه مُحبّاً أو كارهاً.

بات العملية تسهّل أكثر بالحصول على إجابات سميتها بالمعقدة.

إن مشكلات الحياة تتخذ منبراً نحو هذه الحقيقة، لن يقدر الإنسان على العيش منعزلاً عن أخيه، بل نحن بأمس الحاجة لبعضنا البعض لإشباع حاجاتنا المعنوية،

وضمان بقائنا للوجود على مسرح الحياة، وهو الهدف الأولي والأساسي للحياة.

صرت أشعر أن مفهوم الحياة صار يتقارب لديك؛ هل أستطيع أن أسالك عن معنى الحياة لديك إذن؟ خذها نصيحة مني قبل التسرع بالإجابة، اصبر؛ لتكتمل الصورة أكثر، إنني أشعر أنك في كثنان رملية تحمل ذراتها العديد من الصور، والأفكار، والتهيئات، فالإنسان سَنَد أخيه أو زميله بالحياة، والدعم المعنوي للكائن البشري هو الأكثر أهمية من المادي رغم أهميته أيضًا.

الظرف الاضطرابي الثالث:

يكمن هذا الظرف في أن الحياة تتكون من رجل وامرأة فقط، وأن عليهما الاثنين الوصول إلى حل مشكلات الحياة أجمع، فقد ينشب خلاف إن طَغَى الجنس الذكري على الأنثوي، فتكاد تُمحي آثار الأنثى من الوجود شيئًا فشيئًا إن

تم تجاهلها، وعدم التعامل معها ككائن مهم، بل هو أساس الحياة أجمع.

على الطرفين الاتحاد فكريًا ومنطقيًا للتوصل لإجابة تُرضي كليهما، فعندما تواجههما مشكلات في دروبهما تكون أفعالهما غير مبررة أحيانًا؛ لتفادي الوقوع في شباك اللوم والعزلة.

من المنطق والعدالة أن تكون ردة أفعالهما هي الأصدق تعبيرًا عما يؤمن به كل منهما.

من وجهة نظر سريعة سأقدم اختصار الاضطرابات الثلاثة، فيمكن تلخيص حدوثها بمشكلات إن أوجزت التعبير:

المشكلة الأولى: على العنصر البشري إيجاد مهنة تمكنه من البقاء حيًا على هذه الحياة.

المشكلة الثانية: أن نقف تحت خيوط الشمس معاً،
ونتعاون مع بعضنا البعض بتبادل الخبرات والتجارب.

المشكلة الثالثة: برحابة صدر يجب أن نستقبل فكرة
وجود ذكر وأنثى، وأن نرحب بهما خيرَ ترحيب على هذه
الأرض، وأن يقبل كلُّ منهما الآخر.

الشعور الاجتماعي:

لا بُدَّ من إمعان النظر جيداً، والتحديد أكثر على مَنْ حولنا
من تلك الفئات المهمَّشة التي لم نسأل أنفسنا: لمَ هم كذلك؟
وعلى أولئك العُصاة، الفاشلين، اللصوص، عديمي
الثقة، المجرمين، ذوي الهمم السلبية، وكأننا أطلقنا عليهم
المسمِّيات بشكل حتمي أولئك صنف البشر المهمَّشين في
المجتمع، وربما المظلومين؛ لأنهم فقدوا المهمات الحياتية
الثلاث؛ لينعكس ذلك على تصرفاتهم.

لم يشعروا يوماً بالأخوة والزمالة من قِبَلِ الآخرين؛
فكانت آراؤهم منبوذةً، فكم من وقتٍ ضيقَ مرَّ عليهم دون
تلقي المساعدة من الآخرين؟

وحين أتاحت لهم الفرصة تعاملوا مع الصداقة والزمالة
بصورة أثبتت أنهم غير جديرين بها، والثقة لديهم معدومة،
ومن ذلك ينبثق لديهم المفهوم الخاطئ لمفهوم الحياة.

إن هذا التعريف المضللّ لديهم عن الحياة يجعلهم
يتخاذلون عن تحقيق أهدافهم؛ مما يجعل الآخرين لن
يستفيدوا من إنجازاتهم الشخصية بأي شكل من الأشكال،
ومن ثمَّ تشكّل انطباع عنهم أنهم هم الفئة المتشائمة في
الحياة، فلا قيمة لهم على الإطلاق.

إن الفرد الذي تنبثق عنه تلك المفاهيم -وقد تشوّهت
لديه مفاهيم الحياة- يضرُّ المجتمع من حوله، حيث يُمحى
لديه مفهوم الكلمات شيئاً فشيئاً بالتدريج إلى أن يصل إلى

انعدام الشعور بالآخرين.

دعني أياها القارئ أقص عليك قصة عن إحدى القائدات الدينية: "قامت تلك الأنثى في يوم من الأيام بدعوة الأشخاص الذين يتبعونها إلى اجتماع، كانت على قناعة بالذي ستقوله لهم، وهو: إن نهاية العالم حتماً ستكون يوم الأربعاء القادم، لقد آمن كل من يتبعها إيماناً مطلقاً بقدراتها، وكانوا يصدقون كل ما تنفوه به، ولأن نهاية العالم اقتربت قاموا ببيع كل ممتلكاتهم الخاصة، الثمينة منها والرخيصة التي باتت بأعينهم لا تفيدهم في شيخوختهم، بل هي زهد الدنيا.

مرت الساعات إلى أن مرَّ الأربعاء مرور الكرام، وأتى يوم الخميس دون أن يحدث الذي تنبأت به؛ شعر الجميع بالغضب، فقد أصبحوا أضحوكة للغير في نظرهم، ولم يفهمها أتباعها؛ لأنها امتلكت معنى خاصاً للحياة، مختلفاً

تماماً عن الذي يمتلكونه للمفهوم العام عن الحياة، وكلُّ يُعني على ليلاه في إطلاق التفاسير والمفاهيم المرتبطة بالحياة. إن المعنى الأصح للحياة هو المساهمة التي يركز عليها مصلحة الآخرين لقيام المجتمع بشكل صحيح بعيداً عن الآفات والأنانية والانعزال.

يجب أن يتم السؤال دوماً عن الفرد وأحواله؛ فهو الشغل الشاغل الذي يحتل المراتب الأولى للشعور الاجتماعي. على الأفراد الخوض في تجارب الحياة، وعدم التنحي للخلف كما كانت تفعل الأمم السابقة.

سَجِّل أهدافك اليومية، ورتِّل الطموحات التي تسعى لتحقيقها بتكافل تحت مظلة الشعور الاجتماعي، فلا يمكنك العيش وحيداً دون أن يكون لك خَلِّ يشاركك دربك في شوارع الحياة.

إن الحياة تمد لك يدها؛ لتنهض وتتطور أكثر، فلا تَبْترُ
اليَدَ التي مُدَّتْ إليك، بل أَحْسِنِ التعامل معها وافْهَمْهَا.
أدرك أن للحياة معنى آخرَ أكثرَ دقةً، فلا تستهتر بالمفاهيم
السطحية التي تشوِّش أفكارك.

إن الحياة بسيطة بتعقيداتها، وجميلة بمرارة الظروف،
فأكمل مسيرة حياتك ودَعْكَ من التوقف عند نفس النقطة،
وكل ما عليك هو إدراك حقيقة الحياة، فَعِشْهَا مرة كي لا
تندم أنك غادرتها دون معرفتها جيداً، إياك ذلك!

بالنسبة للإعاقات الجسدية التي تتراكم الكلمات للتعبير
عنها، فدعني أُسرِد لك الآتي:

تبدأ الحياة عند مرحلة الطفولة، وما أجملها من أيام تحمل
الذكريات!، وفي طيَّاتها صور يُحمَد سرُّها أو يُذَمُّ عُقباها،
فعلينا أن نتوقف دقيقةً؛ لتذكر التجارب التي مرت بالطفل،

والتي يترتب عليها أخطاء جمة في تحديد الكثير من المفاهيم المرتبطة بالحياة، وإن كثيراً من الأطفال تعرضوا للفشل المبرح من خلال تجاربهم البائسة على قدر أعمارهم.

فعلى سبيل المثال:

إن الأطفال المصابين بالإعاقات الجسدية أو مرض ما قد يُصنّفون أنفسهم بالفاشلين؛ فيتعرضون لكثيرٍ من المشاق والصعوبات في الحياة مما يدفعهم إلى المساهمة في رفاة المجتمع؛ تكفيراً عن ذنبهم بالإعاقة الجسدية كما يشعرون.

إذا تركنا تلك الفئة من الأطفال وحدهم، فمن المحتمل أنهم سيركزون على احتياجاتهم واختياراتهم المتنوعة؛ للعيش على هذه الصورة من الحياة، ففي وقتنا الراهن، وفي مجتمعنا القائم على التطور والازدهار ستُمنح تلك الفئة من الأطفال شعوراً متزايداً بالنقص وفقدان الثقة، وصولاً للشعور بأنهم الأسوأ على الإطلاق.

التعويض الزائد هو الخيار الأنسب حين تقوم الاختراعات والاكتشافات الحديثة لمن يعانون بشدة من صعوبات جسدية ومادية بليغة.. ينشب الصراع الداخلي بين فئات المجتمع.. تتضارب مفاهيم الحياة لديهم، فالكُل يريد إثبات نفسه؛ لتحديد هويته، وتحديد مفهومه للحياة بشكل أدق، فبالنسبة إلى الأطفال الذين يعانون من إعاقات.. تطورت أفكارهم، ونمت جيداً؛ ليخوضوا تدريبات ذهنية وجسمانية تمكنهم من العيش مع أقرانهم.. ستمنح لهم الفرصة الكبرى لتكوين ذكرى لمراهقتهم.. كيف نشؤوا وترعرعوا في ظروفٍ خلدت بؤسهم وعزلتهم.

يلعب التعويض الزائد الدور الأكبر في كبج جماع كلٍّ متعثّر وفاشل في عين نفسه، ولم يفهم الحياة بعد، فالتعويض ذاك الذي أسطر به الكلمات الآن هو سِقاية النبات في فصل الشتاء؛ عوضاً عما افتقدَهُ في فصل الصيف.

إن المشاعر المتكدسة والمتراكمة لدى الكائن البشري تعطي مجالاً أن القلب يريد أن يمتلئ بعواطف بإذن العقل، لا يستطيع الفرد الذي لم يفهم الحياة التصرف بشكل عقلائي ومنطقي إلا إذا خاض تجارب جعلته يسقط في حفر الحياة مرة تلو أخرى.

على نقيض التعويض الزائد عن حجمه، يرفع التدليل الزائد يده عالياً؛ ليثبت وجوده بين أفراد المجتمع، فالتدليل الزائد الذي يرافقه الإهمال يعطيان المفهوم الخاطيء للحياة، فالزيادة المبالغ فيها هي النقصان بحد ذاته.

إن الأطفال الذين نشؤوا في بيئة حرمتهم من ممارسة مواهبهم وتنمية أفكارهم، تعطي لديهم الشعور بالخلل الداخلي فيهرعون نحو جرعةٍ تداوي ألمهم من أثر التدليل الزائد أو الإهمال، فالمدللون هم الذين يعتبرهم العالم فاشلين لأنهم حظوا بفرصة أكبر حجماً، ولم يقوموا باستغلالها

بالصورة الأصح، فهم يمتلكون، ويأخذون ما لا يستحقون
بجدارة دون تعب أو كد في أزقة الحياة، فالمدلّلون بشكل
مبالغ فيه هم السبب في تضليل مفهوم الحياة.

أما ما يزيد الطين بلّة فهو الإهمال وكأنك تحجب الشمس
عند بزوغها، أو تحرق القمر حين يهّلُّ، وكأن شيئاً موجوداً
جعلته عدماً، هكذا الإهمال بالتنحي، وعدم إلقاء نظرة لما
يحدث، تتراكم المفردات، فيزداد فهم الحياة الخاطئ عن
طريق الإهمال.

فئة الأطفال الذين لم يحظوا بشعور الحب والتعاون،
بل كل ما تلقّوه هو الإهمال والتهميش، كل ذلك يدفعهم
لتشكيل مكعب يجعل الحياة لن تبدو لهم كما هي بالحقيقة.

حين يتوقع الطفل أن كل ما يريد سوف يتم تلبية، وأن
أمنيته المستحيلة سوف تتحقق، وأن غير المرغوب سيصبح
في حياته مطلوباً فوراً؛ هذا هو التدليل الزائد بأم عينه، الذي

سيفسد شخصية المجتمع، وتراكبها، وانسجامها، فالتدليل الزائد يؤدي إلى فهم الحياة الخاطيء.

أيها القارئ، عليك إدراك خطورة الأمر، وكأنك تسكب الماء في الممتلئ أكثر فأكثر، فهذا النوع من الأطفال الذين ينشؤون في هذا النمط المعيشي يفهمون الحياة بشكل مमित، ولا يدركون المعنى الحقيقي للحياة، والذي سأبحث أنا وأنت عنه بالتدريج، ستعلم في نهاية الصفحات كيف نشبت حرب الأخطاء في فهم الحياة.

عزيزي القارئ، لنفهم المعنى الصحيح والدقيق لحروف الحياة، رغم أن الكلمات بسيطة وقليلة إلا أنها أصبحت أكثر تعقيداً، فنحن نبحث معاً عن التدليل الزائد الذي لم يكن بحسبان الجميع، فعندما تكون كل الرغبات مُجابهة، والأمنيات مستحيلة التنفيذ ستتحقق بعضاً سحرية، فمن المؤكد سيتربع هذا الطفل المدلل على عرش الأمر، والنهي

كيفما شاء ووقتاً أراد، وويلك إن لم تُلبِّ مطلبه مهما كانت الأوضاع صعبة سواء كانت اجتماعية أو اقتصادية.

إن المجرم الحقيقي هم الأهالي؛ فهم يعطون قيمة أكبر للأطفال وهم لا يستحقونها، بعيداً عن كل مفاهيم البراءة.

كم طفل تحقق لديه دليل زائد في هذا العالم، ولم يبذل أي جهد في سبيل تحقيق هدفه؟! كأنه - كما يُقال - وُلِدَ وفي فمه مِلْعَقَةٌ من ذهب، ويستمر ليطالب بمميزات هذا الوضع الاجتماعي المكلف بكل تعابيره، إنه بمثابة مَنْ أخذ حقوقاً موروثة دون علم الوارث، فالوارث كالسارق لا يعرف قيمة المال، وهذا النوع من الطفل الذي ينشأ، ويكون ضحية للتدليل الزائد، يصبح غير مكترث لمعنى الحياة الحقيقي الأعمق، ونتيجةً لهذا سيُظهر هذا الطفل تصرفات غريبة، كما أنه سيعاني من الشتات والضياع بين أسطر الكلمات، حتى إن شخصيته ستكون مهتزة كبركان هادئ لم يثر بعدُ.

إن هذه النوعية من أولئك الأطفال المدللين سيأتي ذلك اليوم وهم يفتقدون وضعهم في المركز الاجتماعي كطبقات اجتماعية، ربما أرسقراطية، وربما أقل من ذلك، فحين يرى الآخرون هذا النوع من الأطفال لا يعتبرون وجودهم ومشاعرهم مهمة في الحياة؛ بسبب هؤلاء المدللين.

إن العالم بشكل أجمع لم ينجح في إعطائهم ما يستحقونه بكفاءة؛ لأنه قد تم تدريبهم منذ نعومة أظفارهم على الأخذ فقط؛ يأخذ دون عطاء، فكأنهم يخيطون ثقب جيبيهم بحريز دون حياكة الشياب الممزقة الأخرى، فيحتكرون كل ما لذّ لهم وطاب من الأيام لأنفسهم فقط.

إن جميع من حولهم يقومون بدور الخدم، يقدمون الخدمات لهم بشكل مبالغ فيه حتى إنهم فقدوا القدرة على الاستقلال، والاعتماد على أنفسهم، وهم غير مدركين كيف يخدمون أنفسهم.. يواكبون ويواجهون الحياة بكل

صعوباتها دون وعيهم لحقيقة الأمر.

التدليل الزائد كنفخ البالون لينفجر، فيعطي الطفل أكبر من حجمه، فهو يشعر أنه لا يوجد له مكان، ولا يوجد له دور للتعاون ومساعدة الآخرين، يشعر أنه محور الكون، وأن الكل يتحدث عنه، وكأنه يجلس على كرسي ملكي، وكل الأصابع والسبّابات تشير نحوه، فهذه الطريقة الوحيدة ستجعله لا يستطيع أن يتغلب على الصعاب التي تواجهه في الحياة، فهو يطالب مَنْ حوله بمد يد المساعدة من طرف إصبعه!

شخصية الفرد المدلل تؤمن بأنه إذا امتلكت غيرها استطاعت أن تمتلك كل العالم، وكل الأشخاص من حولها، فيقول الفرد في نفسه: "أستطيع بكلماتي، وبأسلوبي، وبحركاتي، أن أسترجع وضعي الاجتماعي السابق، وكأنني سأجبر الآخرين مكرهين على الاعتراف بشكل علني

بمدى خصوصيتي، وأهميتي بينهم، فيجب على كل شخص -مجبراً- أن يحقق ويلبي رغباتي حالاً".

كل ما يشتهيهِ الشخص المدلل بالجرعة الزائدة يعاني منه، وأنا أقصد هنا المعاناة؛ لأنها فعلاً في الحقيقة كذلك، فالطفل الطبيعي الذي يعاني من ضيق أو أزمة معينة ستصبح أموره سهلة الحل، أما ذاك المدلل يقف أمام مرآته واثقاً أن الجميع من حوله هم بخدمته؛ لإرضائه، ولتحقيق رغباته بأي طريقة كانت، فالغاية عنده تبرر الوسيلة، فعلى الجميع السعي لإسعاده، فمن شَبَّ على شيء شاب عليه.

حقيقة هذا الطفل المدلل الذي تلقى الجرعة الزائدة من الدلال من البيئة المحيطة به عندما تظهر عليه علامات البلوغ، أو يصبح إنساناً مراهقاً ستكون مرحلة خطيرة، وستكون لاحقاً هي العقبة الأصعب في الفهم الصحيح لمعنى الحياة.

المشكلة في أن هذه البذرة المدللة التي تلقت الجرعة الزائدة في الدلال حين تكبر ستظن نفسها أنها صاحبة التقوى، وصاحبة الطيبة لدى المجتمع، ستتظاهر بذلك بشكل خارجي، ولكن المعنى المبطن لديها أنها تدفن الأنانية، إن هؤلاء يجنون السيطرة على الآخرين، فالآخرون بالنسبة إليهم خدم لمساعدتهم، وتحقيق رغباتهم منذ نعومة أظفارهم، ومع الأسف كطبيعة بشرية، وفطرة إنسانية سليمة سيحب هؤلاء المدللون الدسيسة بينهم دون إدراكهم الحقيقي أنهم خاضعون لسيطرتهم، فسيستمر البشر على مساعدتهم، والخضوع لتلبية رغباتهم، بينما يبقى هذا الطفل المدلل الذي كُبر ممتنعاً عن التعاون؛ لأنه لم تُزرع لديه فكرة أن العون هو أساسي وضروري في المجتمع، فما أخطرها من مجموعات بشرية دسيسة تجعل الآخرين تحت أجنحتهم؛ خدمة للأنا، والباقي مبني للمجهول.

نتيجة لذلك، فإن البعض الآخر سيثور ثورة عارمة، وتسود الفوضى في أنحاء المجتمع دون الفهم الحقيقي لمعنى الحياة؛ من هنا يفشل البعض في الحصول على ما يعتقدون أنه من حقهم الموروث، ويشعرون أن أقرب أقربائهم قد خانهم دون سابق إنذار، ويكون هو "الذي خضع لأوامر الطفل المدلل" ضحية المجتمع، بل إن بعضهم يشعر وكأن المجتمع كله خصم ضدهم.

يدافعون عن أنفسهم؛ فهم ضحية أمام أعين الجميع، وما باليد حيلة سوى الانتقام من أولئك الذين يناصرونهم العداء الداخلي، ومن هنا يُظهر المجتمع عدم تقبله البسيط والسهل لنمط الحياة، فينشُب النزاع الداخلي، ويصبح الإنسان تائهاً ضائعاً غير مدركٍ للقيمة الحقيقية لفهم الحياة.

كل ضحية ستستخدم المعنى الحقيقي للحياة بطريقتها، ولكن بطريقتها الخاصة، ألا وهي الطريقة الخاطئة لفهم

الحياة.

قد تنشب الاختلافات لعدم اتفاق الآراء بين البشر،
فيتجنب شخص الحديث مع غيره، ويقتل آخرُ إحساس
زميله بنظرة تجرح فكره، وقد تفرق كل الذكريات بمجرد
قول: لا.

ما المانع في الاختلاف والتنوع في الأحاديث؟ نحن
كبشر -وخصوصاً أنا وأنت أيها القارئ- نعيش على بقعة
جغرافية بعيدة المدى، فهناك اختلاف اللغة، العرق، الدين،
ولكن الإنسانية هي التي تجمعنا تحت سقفها.

إن الظروف التي تحتم العيش على هذه الحياة هو بقاؤنا
على سطح كوكب صغير جداً، فتأتي أدوارنا ككائنات
بشرية بالحد من استخدام الموارد الطبيعية المحدودة حولنا،
ويتوجب تطويرها بتحسين أجسادنا وعقولنا؛ للتمكن من
العيش بطريقة صحيحة ومُثلى.

وهناك طرف كفيل بتشجيع الإنسان على العيش على هذا الكوكب الصغير؛ ألا وهو الإنسان الآخر، فكل إنسان هو جزء لا يتجزأ من أخيه وزميله؛ لتحقيق أهداف المجتمع التعاوني، فإذا حاول إنسان العيش بمفرده، وحلَّ مشكلاته وحيداً، فحتماً هذا مؤشر أولي لفناء البشرية؛ لارتباطنا ارتباطاً وثيقاً ببعضنا البعض.

الفصل الثاني الجسم والعقل

أيها القارئ المتصل بأفكار متشبثة بلقمة الإجابة، قد طال انتظارك لتعرف ماذا تعني الحياة لك وللآخرين، ولربما تُستخف كريشة حملها نسيم الصيف بعمق هذا السؤال، فهو السهل الممتنع بحد ذاته، لو أعطيتك ورقة وقلمًا، وقرأت السؤال الذي أكرره عليك كثيرًا بدءًا من عنوان الكتاب، وختمًا بآخر فصل، هل تَعُدُّني بإجابته؟

إن الحياة -بدروسها- تمنح المزيد من تدبر أعمق تفاصيلها لكل مَنْ يعيش فيها على هذا الكوكب، تختلف التجارب بين إنسان وآخر، تتلو الذكريات بعضها البعض، وتشابه القصص باختلاف جنسياتها، لكن المفهوم يندرج وينسكب تحت سقف واحد؛ ألا وهو الحياة.

أردت -أيها القارئ- أن أعرض عليك سطوري في هذا الفصل حول الجسد والعقل؛ لأنك ترعرعت على مقولة:

"العقل السليم بالجسم السليم"، ولكنَّ السؤال الذي يطرح نفسه: وماذا إن كان الجسد مُعاقًا، أو لديه بعض الإصابات الوراثية أو الحياتية؟ هل من المنطق أن يكون العقل سليمًا، أو أن الجسد هو ما يحدد طريقة تفكير العقل كيف له أن يكون؟

إن علاقة الجسد بالعقل ترتبط ارتباطًا وثيقًا بكلٍّ منهما، فَمَنْ المهيمُنُ الطاغِي على الآخر؟ هل العقل هو مَنْ يأمر الجسد بالحركة، والتصرف، والقيام ببعض السلوكات التي تنافي مبادئه؟، وهل يخضع الجسد لكل تلك الأوامر، فلا حول له ولا قوة؟

إن كانت الحياة تعني لك مجرد عقل يفكر ويدبر بانفصاله عن بقية الأعضاء، فهل فكرت بالقلب، واليد، والرجل، والعين، كيف لهم البقاء دون عقل؟، أو هل فكرت ذات مرة أن الحياة تبدو لك بكل معانيها جسدًا يُظهر قوته

للآخرين؛ ليطغى بشكله على كل عين تراه؟

دعني مجدداً أسألك: وماذا عن ذوي الإعاقة؟، وحتى
ماذا عن المجنون الذي فقد صوابه؟، كيف لكلٍّ منهما
العيش على هذه البقعة؛ ليكملا مسيرة الحياة ضمن التعاون
المجتمعي؟

إن التفاعل بين الجسم والعقل أمر حتمي، فلطالما تساءل
البشر: مَنْ هو المسيطر على الآخر، الجسد أم العقل؟ قد
شارك الفلاسفة بالإجابة عن هذا النمط باتخاذهم شكلاً
آخر بتسميتهم الماديين والمثاليين، فكثرت الجدالات دون
الوصول إلى إجابة.

"درهمٌ وقايةٍ خيرٌ من قنطار علاج" عزيزي القارئ،
فلنمسك بأيدي بعضنا البعض؛ لنجيبَ على سؤال: ما هي
أهمية العقل والجسد؟ يجب علينا أن نطرح جميع الأسئلة
التي تدور في ذهننا، ويجب أن تكون -الأسئلة- مستمدة

من خبراتنا السابقة، وأن تكون فعلاً قابلة للتطبيق على أرض الواقع - فلا تكون حبراً على ورق - والواجب علينا أن نتعامل مع نتائج حقيقية وملموسة بين التفاعلات بالعقل والجسد، وأن يكون لدينا دافعٌ قويٌّ لتحديد الجهات بين وجهات النظر المختلفة.

لقد تطور علم النفس الفردي، وغيرَ من طبيعة هذه المشكلة بشكل حتمي، (العقل والجسد)، لم تعد المشكلة فقط إما هذا أن يكون، وإما ذاك أن يكون.

علينا أن ندرك طبيعة البشر بالجسد والعقل كليهما، فما هما إلا تعبير فعلي عن الحياة، هما جزءان رئيسيان لتكوين الحياة.

لقد بدأنا الآن في فهم العلاقات المتبادلة بين جزأين من الحياة؛ ألا وهما العقل والجسد، فالحياة البشرية بشكل عام تعتمد على الحركة الفيزيائية، ولكن من عدم الكفاءة، ومن

غير العدالة أن نقول: إن الإنسان يتطور من الناحية الجسدية فقط، أو من الناحية الحركية فقط، وذلك لأن الحركة في حد ذاتها تحتوي على معنى التحكم في الذكاء وتقييد هويته؛ أي أننا نتحكم في العقل البشري، فمثلاً: النبات له جذور، ولهذا فإنه يبقى في المكان نفسه بثبات، يمتلك عقلاً لا يستطيع التنبؤ بالأحداث القادمة، لكنّ العقل النباتي يختلف تماماً عن العقل البشري كمفهوم، فتلك الكائنات القادرة على الحركة تمتلك روحاً وعقلاً.

أقتبس قولي من مسرحية شكسبير من مسرحية هاملت بفصله الثالث حين قال:

"العقل... نعم، فحتماً لديك عقل، وإلا ما قدرت على الحركة".

إن وظيفة العقل تنبثق من وقوع الأحداث؛ لتوجيه الحركة التي يكمن مبدؤها بتقبُّل مبادئ كيف يتحكم العقل

بالجسد؟

إن الحركة العشوائية أمر غير كاف لتحديد الهدف من القيام بذلك، حتى يمكن اعتبارها دليلاً جازماً على وجود العقل.

إذن، كي لا تتوه أيها القارئ المنتظر لفهم معنى الحياة، إن العقل هو المرشد، والقائد، والمدبر للجسد؛ أي أنه ربّان، يتحكم في حركته، بالمقابل، تندفع موجة العقل؛ لتكون لها سلطة على الجسد أيضاً؛ لأنه الذي سيقوم بتنفيذ الأوامر.

على سبيل المثال:

لو حاول العقل أن يُقنع الجسد بالذهاب إلى القمر، سيفشل ذاك الجسد في تنفيذ المهمة؛ بسبب محدودية إمكانية الجسد على الحركة، ومن هنا تختلف القدرات البشرية العقلانية والجسمانية في تحديد المهارات الحياتية.

ربما سينأى الجسد نحو زاوية باكيًا، ويقف أمامه العقل
بإلقاء اللوم، وتلقيه دروسًا لفشله؛ فتُظلم الحياة لمفهوم
الجسد والعقل الخاطيء لإدراكها.

إن الحياة واسعة بكواكبها؛ لاستيعاب كل الإمكانيات
البشرية، فالإنسان الذي يخاف من عرض قدراته الحركية
إلى العقل، سيمكث منعزلًا في الحياة دون تحقيق هدف
واحد، والعقل الذي يُجَبِّط من كسل الجسد الخامل ستبعر
خلاياه بين زوايا تائهة غير محددة المصير.

الفهم الحقيقي للحياة هو وضع كلٍّ من العقل والجسد
على كفتي ميزان، فالثمنى أن تُراعي قدرات الجسد هذا
العقل، وتعطيه فسحة؛ لتحقيق ما يمكن إنجازه، واليسرى
أن يدادي العقل الجسد كطفل وُلِدَ تَوًّا، على الاثنين مصارحة
بعضهما البعض.

يأتي هنا المُسَعَف ليوافق بينهما، ألا وهو التعويض الزائد،

يتبارز التعويض مع التدليل الزائد؛ ليثبت كلٌّ منهما الآخر،
فكثير من الفنانين، الشعراء، الرسامين، مُصابون بإعاقات
جسدية، وعقولهم مذهلةٌ تقف الأعين أمامها باندهاش!!
إن عقولهم مدربة على هذا النوع من القصور والإعاقات
بالتعويض الزائد، حتى يصلوا مرحلة تجعلهم يستخدمون
أعضاءهم استخدامًا أنفع وأفضل من الأصحاء.
على هذا يمكن القول:

إنه إذا طَوَّرنا التَّقْنِيَةَ السَّليمة، وقوينا الدافع السليم عند
الطفل لمقاومة الصعاب في حياته، قد نكون بدأنا بِإمساك
الخيوط الأولى؛ لِإِدْرَاكِ معنى الحياة حتى لو بكمية بسيطة عن
طريق التمرين المواظب لتحويل العيب إلى ميزة، والنَّقْمَة
إلى نعمة.

حين تكْمُن الرغبة عند الأطفال في المساهمة في تقدم

مجتمعهم، فإنهم سينجحون في تعليم ذاتهم كيفية تعويض العيوب التي بداخلهم، وهم وحدهم سيرفعون علامة النصر للتركيز على نقاط قوتهم.

إن اليد الخرقاء ستتحول إلى معجزة، والسواد سيؤوب إلى بياض؛ ليتمكن هذا الطفل المعتمد على ذاته بعقله وجسده لتقديم أداء أحسن في المستقبل الموعود.

قد أجريت بحثاً مع إحدى العائلات التي تعاني من عيوب وأمراض وراثية في الكلى هي: حالة التبول اللاإرادي.

إن الكثير من الأطفال الذين ينتمون إلى هذه العائلات لا يمتلكون دافعاً نفسياً مُبهماً.

إن العيب الجسدي وحده غير كفيلاً؛ ليبرر حدوث هذه الحالة؛ لأنهم غير خاضعين للسيطرة على حركة الجسد بعقولهم، رغم أن هذا السلوك سيختفي فجأة مع الأيام مع

تغيّر الظروف المرافقة لهم، أو بالأحرى حين تتغير معاملة الأهل للطفل.

إن أعظم رجال علم الاجتماع في دولة ألمانيا قد اكتشف أن المجرمين الذين ينجّرون نحو السجون أغلب آبائهم يعملون في وظائف مرتبطة بتطبيق القانون، ومحاربة الجريمة؛ كالقاضي، والشرطي، وحارس السجن، والمحامي... إلخ، والعجب العُجاب أكثر أن أبناء الأكاديميين، والمدرسين، على الأغلب هم متخلفون عن الدراسة، والمنحرفون من أبناء رجال الدين، والعصبيون، هم ثمرة أبناء علم النفس، وذلك نتيجة إلى الضغوطات التي يتلقونها تمامًا كما حصل عند الطفل صاحب التبول اللاإرادي، وكأن الطفل يهمس في أذن أبويه:

- ما زلت طفلاً صغيراً فلا تحكموا عليّ كإنسان بالغ؛ فأنا ما زلت بحاجة إلى رعايتكم.

تُسدل ستارة الحياة؛ لتعطي للمشاعر دوراً للقيام به،
فللمشاعر الأثر الأكبر في تحديد هوية الإنسان ليجري نحو
فهم معنى الحياة.

قد بدأ نسيج الخيوط يتشابك لديك أيها القارئ، هذا؛
لأن المشاعر تتضارب بين عيونك لتعي ما أكتبه إليك.

إن الحضارة الثقافية هي ما تمنحه التهيئات التي أحدثها
الجنس البشري في البيئة المحيطة به، وصولاً إلى حضارتنا
التي وقعت على بقعة بلادنا، ما هي إلا الحركات التي قامت
بها العقول إرضاءً للأجساد.

هو وحي من العقل الذي ساعد في نشئة الجسد،
لكن، أيها القارئ المتعطش لمعرفة معنى الحياة.. يجب أن لا
تنسى أنه من الجدير أن لا يسيطر العقل على الجسد بشكل
جازم.

إن المشاعر هي التي تضبط الجسد ليجابه الموقف بحزمةٍ من الردود، والأفعال، والمقدرة على التوهم، والانطلاق؛ لتكون النفس في مكان غير مسبوق، وما هي إلا طرق فضولية للتنبؤ، والتي بالنهاية سيستجيب لها الجسد.

هكذا وببساطة تتكون مشاعر الأفراد، هذا التعريف الذي سيعطونه "معنى الحياة"؛ لتكون مشاعرهم هي المحفز لتحقيق أهدافهم النهائية.

إن المدللين بأعين غيرهم فاشلون في خوض تجارب الحياة.

الفصل الثالث

فيض المشاعر "التفوق والنقص"

دعني أخبرك أيها القارئ -الذي اتكأ على هذه الصفحة -
بأنني ذهبتُ إلى السوق ذات مرة، كنت أتجول بين قطع
الحلوى التي خططت لشراؤها من قبل عبوري هنا، سمعت
حوارًا يدور بين أم وابنها، وصراحة -لا أخفي عليك -
فإنني ألقيت السمع أكثر:

-أتحب قطعة الفانيلا أم الشوكولاتة؟

-أنا أريد كليهما.

-ولكننا اتفقنا أن أبتاع لك واحدة، هيا اختر.

-قلت: إنني أريد كليهما؛ الفانيلا والشوكولاتة.

-بنيّ، عزيزي، في المرة القادمة سأحضر لك كليهما،
ولكن اختر.

-وأنا قلت أريد كليهما، هذا ليس من شأني، هيا اذهبي

واشترىها.

قد كان الطفل يتكلم مع والدته بصورة الأمر النهائي، كان هو مَنْ يمتلك السلطة على والدته، فيشترط ما الذي يريده دون زيادة أو نقصان، فانصاعت الأم لأوامره؛ لأنها باتت تؤمن أن كلَّ ما عليها هو تلبية احتياجاته فوراً دون المناقشة، بل يتوجب عليها إرضاءه وخدمته.

كان ذاك الطفل يمثل شريحة كبيرة في المجتمع الإنساني للدلال الزائد... إن المشاعر لديه تكدست؛ لتنسكب في وجه كلِّ مَنْ يتعامل معه، سواءً كان كبيراً أم صغيراً، ترسخت لديه مبادئ التحكم بالغير بسهولة؛ لأن السبل باتت لديه سهلة، وكل وسائل الإقناع عنده مستساغة.

لا يُنقص الزائد شيءٌ أكثر من الإهمال المفرط، أذكر أنّ ذات مرة كان هناك والدٌ يجلس قرب ابنه الذي يلعب بالطين؛ ليبنى قلعة رملية، وكان الأب مشغولاً جداً،

ومنهمكاً في حل الكلمات المتقاطعة، فيصبح تارة حين يجد الكلمة، ويغضب تارة أخرى حين يعجز عن الحل:

- والدي، تعالَ معي؛ لأريك قلعتي.

-عن أي قلعة تتحدث؟ إنني مشغول بحل الكلمات.

-أرجوك والدي تعالَ والعب معي.

-لا أريد أن تكون ثيابي متسخة، هيا العب وامرح ريشما أنتهي من عملي.

-أي عمل يا والدي؟ اليوم عطلة.

-كل تركيزي بالصحيفة الآن، هيا اذهب والعب.

أمسك الولد عدته، وأكمل مسيرة عودته ليني قلعتة المهذومة من أسمنت الإهمال، شعرتُ أن ذاك الطفل مهمّشٌ، لا قيمةَ له حين قتل الأب شغفه بكل حماس، فالإهمال الزائد وإن كان مبرراً أودع في قلب الطفل حقداً

مجتمعياً لفقدان الثقة والأمان في مرحلته هذه.

أكمل الأب كلماته المتقاطعة ليذهب إلى قلعة ابنه التي
وجدها مفتحة بفعل يديه:

- وأين هي القلعة؟

- غير مهم أن تراها.

- ولماذا كنت تناديني إذن؟ كم أنك ولد سيئ!!

- أريد العودة إلى المنزل يا أبي، شعرت بالملل.

- ها! وتشعر بالملل أيضاً! كنتُ مخطئاً حين أحضرتُك إلى

هنا.

كان توبيخ الأب أقسى وأمرّ من تجاهله لابنه الصغير،
الذي انتظره ليأتي ولم يفعل، لم يكن من الصواب "أن تأتي
متأخراً خيراً من أن لا تصل أبداً"؛ فلو وصل الأب بالوقت
الذي احتاجه الابن؛ لجزمتُ حتماً أن شخصية الابن حين

يكبر لن تكون معقدة مليئة بالإهمال الزائد.

إن من أهم اكتشافات علم النفس الفردي هي "عقدة النقص"، التي باتت مستساغة على مستوى العالم، حتى إن الأطباء النفسيين يهرعون لاستخدام هذا المصطلح في دراساتهم بشكل ملفت، حقيقةً؛ أنا لا أثق بأسلوبهم وانهماكهم بذلك.

وعلى سبيل المثال: لو أخبرت مريضاً نفسياً بأنك تعاني من عقدة النقص، فالنتيجة منافية للهدف المنشود تحقيقه بالعلاج، وبناء مجتمع متعاون بعيدٍ عن الآفات النفسية، سيضره أكثر مما ينفعه؛ لأن مَنْ يعاني من عقدة النقص سيتطرق لفهم للحياة مُشينٍ؛ لينعزل وحيداً بين التفكير وقلة التدبير.

أن نصرح للمريض بأنه يعاني من المرض النفسي هذا أو ذاك، سنزيد الطين بلة، سنقف مكتوفي الأيدي لإخبارهم:

"إنكم تُعانون مع الأسف من عقدة النقص"، سيهبط على مخيلتهم الإحساسُ بهذه العقدة بألمٍ باقٍ طوال حياتهم.

هناك كثير من الناس حين ترمي عليهم سؤالاً: هل تشعر أن لديك عقدة نقص؟ أو هل تشعر أنك أقلُّ من غيرك؟

حتمًا دون تفكير أو تقديم مبررٍ لكبريائهم سيجيبون:

- لا أبدًا، على العكس تمامًا، فنحن متميزون على كثير ممن حولنا.

دعك عزيزي القارئ من السؤال المباشر للأشخاص ذوي العقدة الناقصة، بل جازف واسألهم بعضًا من هذه الأسئلة التي ستغني وتضمن من جوع في مثل هذه الحالة، كل ما عليك هو مراقبة سلوك الأشخاص العُصابيين؛ لتكتشف أن لديهم طرقًا خبيثةً للتحايل بها على عيون المجتمع، فخذ كيف يفكر الشخص المتعجرف:

"من المحتمل أن هناك كُثْرًا يحاولون تجاهلي والتقليل من شأنِي، يجب أن أثبت ذاتي، وأريهم قَدْرَ أهميتي، وأسبقهم"، فيتشكل لدينا سلوك بأنه متكبر ومتعطرس.

تختلف أنماط السلوك من شخص لآخر؛ لينحدر الجميع تحت قبعة: "ماذا تعني لك الحياة أيها المتعجرف؟ أيها الكسول؟ أيها المهمَّش؟ أيها النائي عن مجتمعه؟، وأيها، وأيها..

كل أنماط سلوك الأفراد تحاول تسلُّقُ جبل التفوق؛ لإثبات الذات، وطحن شعور العزلة، والخضوع والثبات، فذاك قصير القامة يقف على قدميه حين يتكلم مع أقرانه، محاولاً أن يعوض النقص الذي يشكو منه، وأما عن ذاك الطويل الذي يتشاقى لخفض رأسه فيعوضها بابتسامة تجعل مَنْ حوله لا يكثر ثون بطوله، وتلك التي تنفق أموالها في شراء مساحيق تجعلها أكثر بياضاً، رغم أن بشرتها جميلة،

ولكنها شعرت بشعور نقص خائن زارها في قلبها.

شعور النقص متعدد بشتى الأنماط والأشكال للأفراد،
وكما يقال: الناقص أخُّ للزائد، وما أصعبها المشاعر حين
تنساب بالوقت الخاطيء مع الأشخاص غير المناسبين في
الحياة!

عندما تتكئ عقدة النقص مع فرض المشاعر يحدث
الانجراف بنفس التيار نحو الضياع، والمجهول الذي يملكه
كل منهما، فمن النقص ولو زيادة يأتي فهم الحياة الخاطيء.
إن الجهود المتكررة في خداع النفس لن تجدي نفعاً؛
بسبب عدم الإيثار بمواجهة مشكلات العمل، والانشغال
بالأهمية الزائفة للتظاهر بالقوة.

إن عقدة النقص، وفيض المشاعر، تجعل الإنسان غير
كفء لمقابلة التحدي وجهاً لوجه.

ربما الهروب هو السبيل الوحيد لنجاتهم من الانتقادات التي يتعرّضون لها.

هناك سرٌّ يسعى إليه كل من عقدة النقص وفيض المشاعر بإخفاء تصرفاتها، دعني أسميه "عقدة أوديب"؛ أي السجن الضيق الذي جمع كلُّ العُصابيين فيه أنفسهم، وأحكموا غلق البوابة؛ لحماية أرواحهم من البيئة الخارجية.

هروب يتبعه هروب، لقد بدا عليهم الاختباء والانعزال؛ ليمتلكوا الرُّهاب الاجتماعي منذ نعومة أظفارهم.

إن فكرة إثبات الذات، والتفوق الوهمي على الآخرين شبيهة بـ "سبايدر مان".

حين أصاب "نيتشه" الجنون أرسل خطابًا إلى "ستريند بيرج"، ووقع الخطاب باسم: "المصلوب".

فالمجنون يعبر بصراحة جازمة عن هدفه؛ لإحراز التفوق

الأصلي؛ ليصل إلى حالة نادرة "شبه الإله" في علم النفس حين يقول: "أنا نابليون بونابرت"، أو "أنا إمبراطور الصين"، أو "أنا شكسبير...".

يعبر الشخص عن التفوق الوهمي؛ لينال مركز اهتمام الآخر، ويكون محور تفكيرهم.

سيصل هذا النوع من الأفراد إلى الهلع بالتنبؤ بالغيب، وامتلاك قوى غير طبيعية حسب رغبته وتطلعاته عن طريق استحواذ الحكمة اللانهائية في عقله.

إن كلاً من الأشخاص الذين يُعانون من عقدة النقص وفرط المشاعر يخوضون دوامة التفوق غير الباقي؛ لإرضاء مَنْ حولهم أولاً، ثم الكذب على أنفسهم ثانياً، هم ضحية^{٢٦} أخرى للانسياب نحو فهم الحياة، فتبدو الحياة مختلفة لديهم، كل حسب منظوره هو الأفضل، وكل يقاوم^{٢٦} أنه نال التفوق بجدارة، رغم عدم مصارحة نفسه أنه غير ذلك.

الفصل الرابع ذكريات مبكرة

كما للفرج مفتاح، وللجملة كلمة مفتاحية، وأبواب التفكير مفتاح العقل، يُعَدُّ النزاع للحصول على "التفوق" هو المفتاح لشخصية الإنسان، فهناك عدة براهين تثبت هذا في كل مرحلة من مراحل نموه، بإمكاننا أن نستعين بهذه الحقيقة في فهم الحياة وأسلوبها الخاص لكل فرد على حدة. أريد أن أعيرك الانتباه عزيزي القارئ، هناك نقطتان يجب أخذهما بالحسبان لمفاتيح الشخصية دائماً، ألا وهما:

أولاً: نستطيع نحن كبشر أن نبدأ من حيث أردنا؛ لأن كل تعبير سيؤدي إلى نفس النتيجة وإن اختلف، ألا وهو الحافز الرئيسي، أو الفكرة الأساسية التي بُنيت لغايتها الشخصية.

ثانياً: نمتلك كما هائلاً من المواد التي باستطاعتنا استغلالها، فكل كلمة، تعبير، شعور، أو رأي، وحتى الحركة

تساعد في فهم مفتاح الشخصية، وعلى غرار ارتكاب أي خطأ في تقدير المادة فإنه من السهل تصحيحه كي يعود إلى بقية المواد، وكأن شيئاً لم يكن.

نحن كبشر لا يمكننا بسهولة أن نقرر بحزم أن الجزئيات هي الحاكم على تحديد سمات الشخصية، بل إن دور هذه الجزئيات أنها تحفز الفرد بتصحيح ارتكاب أخطائه؛ ليفهم معنى الحياة جيداً.

ليس بمقدورنا أن نتعامل مع أشياء بائدة وزائفة بجزئيات المواد؛ لأنها مترابطة مع بعضها البعض، فهي السبيل المهم في تنمية وبناء شخصية الفرد في المجتمع، فمن المفروض علينا، أنا وأنت -أيها القارئ- كما نسعى لفهم الحياة بشكل صحيح أن نعالج المشكلات من جذورها.

إن الشك والحذر أصبحا مفتاحين للشخصية بشكل واضح؛ لتتوقف لحظة، ونجمع الكثير من الإشارات

والتلميحات بشكل عفوي من الطريقة التي يرقدها الفرد في غرفته، مصافحة شخص آخر، أو حين يتسمم، يبكي، يمشي، فكل تلك الحركات والتهيئات التي تصدر من شخصية الفرد هي بوصلة لتحديد نمطه.

عندما نقتبس الصواب في إدراك واحدة من التصرفات العفوية من تلك الجزئيات كما سمينها سابقاً، فإن بقية الجزئيات هي التي ستقف على أرجلها؛ لتصويب فهمنا وتصويب الانطباع الذي نقتبسه عن هذا الفرد تماماً، وكأننا نترقب نتيجة تحليل من مختبر، فقد تخذلنا التخمينات حيناً، وتعطينا الأمل حيناً آخر.

لحل الخلاف الذي يصدر عن سوء تقديرنا لفهم كيفية الجزئيات العفوية، يتوجب علينا قراءة عيون الفرد، والإنصات إلى شكواه.

إن النظر والاستماع لهموم الفرد تُفسح المجال؛ لتقليص

حجم المشكلة.

ربما يسيء أو يعجز الفرد عن التعبير عن مشاعره ومشكلاته؛ فيلوذ بين الكلمات، باحثًا عن التعبيرات التي تأوي شخصيته، فيأتي فردٌ بوقت مناسب؛ ليمدَّ حبل العون لأخيه وصديقه في المجتمع، ويدرك حقيقة مشكلته، فاتفق الأفراد ل مداواة المشكلة هي بُشرى الخير للمجتمع.

إن كانت الحقيقة بحد ذاتها تُقدَّم بطريقة غير لبق، فلا يمكن لها أن تكون كل الحقيقة؛ لأنها فاضحة لكشف عيننا بعدم فهمنا الصحيح والكافي للحقيقة.

وإن الطرق السهلة لكسب تعاطف الفرد واكتساب محبته بشكل مستحق - لمن اعتاد على التدليل الزائد - ستختفي تحت السطح، ولو حاولنا الاستهتار به وتجاهله، فإننا بتصرفاتنا هذه سنكسب عداوته بشكل سريع حتى ينقطع تدريجيًا عن العلاج النفسي، فنشعر بتأنيب الضمير حول

الاستخفاف به، والاستهتار بمعالجته.

على غرار الاستخفاف بمشاعره، يجب أن نقف قربَه جنبًا إلى جنبٍ بعيدًا عن اللوم المبالغ.

سيضيف التعاون معه؛ لاكتشاف أخطائه، فتتحقق الفائدة له وللأشخاص الآخرين بالوقت ذاته.

ولذلك، من الصحيح أن نضع الهدف صوب أعيننا كي لا نتوه سلبًا أو إيجابًا؛ لأننا لن نعامله على أساس أنه صاحب السلطة بالأمر والنهي، ولن نضعه في مأزق كالذي فقد استقلاله بلا مسؤولية.

إن الذكريات الأولى وعلاقتها بنمط الحياة لا يمكن أن تكون مناقضة لأسلوب حياة الفرد في سعيه نحو فهم الحياة. إن هدف "التفوق" الناتج من التدليل الزائد، التعويض الزائد، أو فرط المشاعر سيتطلب من كل فرد يشعر

باستخفاف الجميع به وإذلاله، فسيختار بشكل بديهي تذكر الأفراد الذين استهتروا بمشاعره، ومن هنا انبثقت فكرة الأهمية الكبرى لفهم وإدراك الذكريات الأولى للإنسان، فالذكريات توضح الأصل الذي جاء منه الفرد، وكيفية أسلوبه في العيش بالحياة في أبسط صورة، فنأتي نحن -كالقاضي-؛ لنحكم على الذكريات الأولى المتعلقة بطفولة الفرد.

سنرى بعقلنا ما إن تعرّض للتدليل الزائد، أو الإهمال، أو مدى تربيته للتعاون، وماهية المشكلات التي واجهته، وكيف استطاع كفرد التغلب عليها.

بحثت ملياً في الحياة، واخترت فئة من الأطفال ممن يُعانون من ضعف البصر، قد قاموا بتدريب أنفسهم على مسك الأشياء وفحصها بشكل دقيق؛ سنرى نحن -أنا وأنت أيها القارئ- أن معظم انطباعاتهم عن الحياة قد

تمحورت نحو الجانب البصري، فستكون لهم ذكريات أولى مثل قولهم: "أخذت النظر من حولي..."، أو سيقومون بوصف ألوان وأشكال متعددة، وبالمثل ممن يعانون من الإعاقات الجسدية؛ سيعبرون عن مدى رغبتهم بالمشي، والهرولة، والقفز نحو ذكرياتهم الأولى؛ لذلك، إن علمنا هدف الفرد الرئيسي، ونمط حياته، فقد أوشكنا على فهمه، وفهم أحلامه المبكرة المتعلقة به.

صعدت إلى الحفلة فجلس بقربي عجوز ذو سبعين عامًا.. تبادلنا الأحاديث، فسألته: ماذا تعني لك الحياة؟

قد يبدو السؤال بسيطاً وسطحياً، ولكن عند التفكير فيه لثوانٍ تُزلزل خلايا الذاكرة، وجدراً القلب، وتغوص العيون بنظراتها نحو ماضٍ طَمَرَهُ الحاضرُ.

وقفتُ للحظات أتأمل وأدقق فيما سمعتُ، فلعلها المرة الأولى التي يسألني فيها أحدهم: ماذا تعني لك الحياة؟

لعل كلماتي، وكل مشاعري تجمدت، وعجزت يداي
عن كتابة إجابة لسؤال سطحي، ولكنه عميق، وهو سؤال
يغوص في النفس البشرية.

عادي السؤال إلى طفل صغير جُلُّ ما يُفكر فيه هو اللعب
واللهو، إلى شخص هَرَمَ يواسي نفسه على ما فات من عمره:
"الحياة تتغير وفقاً لظروف عشتها، وأيقنت أن الحياة هي
هي لا تتغير، بل نحن مَنْ نتغير، فالحياة بدون الدين وإله
يُعبد هي حياة عبثية، وغير منطقية، ولحظات مرهقة وكَدرة،
وهي معركة واحدة يخوضها الإنسان منذ بداية وجوده على
هذه البسيطة إلى أن يأتي اليوم الذي سينام في بطنها.

معركة الوجود، وإثبات الذات، معركة تحقيق ما يريد،
أو العيش بما أملته عليه الأيام.

كانت الحياة تعني لي الأمل، والرضا، والحب، والقناعة،

ولكنها منذ سنوات مضت عشتُها باتت تعني لي الألم،
والانكسار، والخوف، والقلق، ولا أمل بقي، ولا رضا.

الحياة تتغير، أو نحن من نتغير، فهي كقطعة حلوى يراها
كل منا، ولا نختلف على ذلك إن كان لا شيء يكدر صفونا،
حلوة المذاق، ولكنها مرّة وعلقم إن كان كل شيء عكس ما
نتمنى، وهنا تنتهي كلماتي..."

كانت كلمات ذلك العجوز التي جعلتني أكمل مسيرتي
في الحافلة محدّقاً أكثر في المناظر الطبيعية التي تعكس روح
النفس، وشقاوتها.

حقيقة، ماذا تعني الحياة لنا؟ هذا هو الأهم؟

الفصل الخامس الأحلام

إن النشاط العقلي هو الأحلام التي يسعى البشر منذ القدم لمعرفة ما تعنيه.

هناك أنواع من البشر تؤمن أنّ لدى أحلامها معنى عميق وغريب نوعاً ما أثناء خلودها للنوم، فتارة تؤمن أن المستقبل بين أيديها حين تمتلك رؤية قيد التحقيق، وتارة تجزم أن الحلم ما هو إلا كابوس عابر ممتلئ بالأوهام اليومية.

يخلد الإنسان منذ صغره على وسادته، ولا يدرك ممن حوله ماذا يرى، وأي عالم يعيش؟ فحين يستيقظ ينسى ما رآه حين أغمض عينيه المثقلتين بتعب الأيام، لربما فكر الطفل ما هو الحلم؟ وكيف نشأ؟ ومن هم الأناس الذين يراودون حلمه كل ليلة؟ وكيف له أن يميز بين الواقع والحلم؟

يبدأ كلُّ منا بسؤال الطفل: ما هو حلمك حين تكبر؟...
طيار، مهندس، طبيب،... وكأننا نجبره على اختياراتنا
التي نحب نحن لا هو، فليحلم هو كما يشاء وقتما يريد،
وبالطريقة والأسلوب الذي يراه.

قد يبدو لنا أحياناً أن الأحلام هي أن نُغمض أعيننا،
ونذهب عبر الزمن إلى عالم ليس منا أو فينا؛ لتتقابل بأناس
خَيْرين وأشرارٍ، قد يكونون لدينا كالكوابيس، ولكن المعنى
الأعمق للأحلام.. هل هي جزء من الحياة، أم أنها صور
وذكريات عابرة تدق على عيوننا حين نشعر بالنعاس،
ونغفو إلى اللامكان؟

يستطيع الطفل تكوين صداقات أثناء نومه عن طريق
الأحلام، ويستطيع أن يحيا بعالمٍ آخرٍ بعيدٍ عن عائلته
وأقرانه أيضاً، فهذا الطفل يفكر بعقله الباطن عن مدى
كيفية حدوث الحلم في المنام، وكيف بمجرد أن يغلق عينيه

يرى دنيا أخرى!!

ببساطة، وعلى حد علمي، فإن هناك نظريتين فقط
تشرحان الأحلام، هما مفهومتان وعلميتان كالآتي:

-المدرسة الفرويدية في التحليل النفسي نسبة إلى
"سيجموند فرويد".

-المدرسة التي تَبَيَّنَتْ من علم النفس الفردي.

ومن الاثنتين، فإن الثانية هي الوحيدة التي تتكفل
بسلوك المسار الصحيح باعتبارها تمتلك المقدرة؛ لأنَّ تحكَّم
على الأشياء بصورة منطقية صحيحة وهادفة ضمن الفطرة
السليمة.

دعني آخذك أيها القارئ الحالم لشرح وتفسير الأحلام
في الماضي، فكل التجارب السابقة لدراسة وتحليل ماهية
الأحلام لم تكن منبثقة من علمٍ ودرايةٍ، ورغم ذلك يجب

اتخاذها بعين الاعتبار، فعلى الأقل تستطيع أن تكشف لنا طريقة تفكير الناس، ونظرتهم للحياة في الماضي من خلال أحلامهم، ما موقفهم؟، وما تصرفهم الناتج عن نظرتهم هذه وتفكيرهم ذلك؟.

فالأحلام ما هي إلا تراكم النشاطات والفعاليات الخارقة للعقل، ولو دققْتُ أنا وأنت بطريقة أقرب إلى نظرة الناس في الماضي، وكيف أنَّ الأحلام مهمة لهم؛ لوجدنا أنفسنا قريبين جدًّا من هدفهم الأسمى والأساسي لفهم الحياة.

فحقيقة أنَّ الأحلام لها أثر وتأثير على المستقبل بالتأكيد على نظير أنَّ المستقبل ما هو إلا نتيجة صغرى من أحلام الماضي التي كوَّنها الناس في حياتهم.

دعني أوضح لك أكثر بعيدًا عن كل التعقيدات التي تدور في ذهنك عزيزي القارئ، قديمًا أحس البشر أن هناك روحًا هيمنت عليهم بشكل غامض، وكأنها إله، أو

أرواح الأجداد العابرين التي ستهيمن على نمط تفكيرهم، وتشكيل عقولهم... على عكس فئة أخرى من الناس الذين اتخذوا الأحلام مرشداً ودليلاً لهم في أوقاتهم وذكرياتهم البائسة والصعبة.

لو قلّبت أنا وأنت كتب الأحلام القديمة لوجدنا أنها قدّمت شروحا وتفسيرات عن كيفية خدمة الأحلام لمستقبل البشر، ومدى علاقتها ببعضهما البعض، فقد كانت القبائل البدائية تبحث عن التطيّر والبُشرى الحسنة التي تجلب لهم الحظ، والتنبؤات التي كانوا يرونها في أحلامهم، وكان عالم الغيب فُتِحَ لهم، يجلب الحظ أو النهي بأمر ما من خلال الحلم الذي يراودهم.

إن اليونانيين والمصريين القدامى ذهبوا إلى المعابد، آمِلين أن يحظّوا بحلم مقدس، والذي نسميه رؤية كعلاج يشفيهم من كل المتاعب الجسدية والعقلية والروحانية، بالإضافة

إلى الهنود الأمريكيان، يعانون ويتألمون؛ لينالوا المزيد من الأحلام باستخدام التطهير، والصوم، والحمامات القاسية بالغة السخونة.

إن تلك القبائل كانت تعتمد سلوكياتهم وأفعالهم المستقبلية من خلال إدراكهم الصحيح للأحلام، وإلى يومنا هذا فهناك العديد من البشر الذين يحافظون على إيمانهم العميق بما يرونه في أحلامهم الماضية التي قد تتحقق بالنسبة لديهم باعتبارها دليلاً خاصاً لهم بما قد يحصل لهم بالمستقبل. قد يحكم العلم على تلك النظريات بالسذاجة والسخافة، وبالنسبة لي، أن مَنْ كان يستخدم حلمه للتنبؤ بما يحدث بالمستقبل على عكس الفرد الذي يلجأ للحواس في محاولة لحل الصعاب المستقبلية هو أكثر نجاحاً من النمط السابق... لا يدعو المنطق إلى اعتبار الأحلام مرشداً جيداً لتحديد هوية المستقبل، وتنبؤاته، وترك العقل، والإدراك للظروف

الموجودة.

من المحتمل أن يكون هناك سبب جازم وقوي يدعو لوجود مثل هذه العادة لتفسير الأحلام، ولعل هذه الحقائق ترشدنا لمعرفة أكثر لشخصية الحالم وسلوكه.

بالنسبة إلى وجهة نظر فرويد في الأحلام، دعني أركز على استخدام المعنى العلمي بتفسيراته وأحكامه على الأحلام، فطريقته بعيدة كل البعد عن النطاق العلمي، مثلاً: يؤمن فرويد أن العقل يعمل بشكل مختلف أثناء ساعات اليقظة وساعات النوم، باستخدام الوعي واللاوعي في موقف مضاد لنفسه.

وضَّح فرويد قوانينَ خاصة بالحلم، فبوجود هذه التناقضات تستدعي إلى نفي وجود مواقف علمية، ففي علم النفس الفرويدي يكمن النقص في نظرياته المتعلقة بالأحلام عند إجاباته لأسئلة في غاية الأهمية والحساسية

مثل:

١. ما الهدف من الحلم؟

٢. لماذا نحلم؟

إن أطباء النفس الذين يتبعون مدرسة فرويد يجيبون عن تلك الأسئلة بقولهم:

"إن الأحلام وسيلة لإشباع رغبات الإنسان التي يصعب إشباعها بالواقع لديهم".

إن هذه الإجابة غير مشبعة للعقل وإدراكاته، فأين هو الإشباع الذي يتحدثون عنه حين يتم نسيان الحلم؟، أو حين نعجز نحن كبشر عن فهمه؟، فكل البشر يلمون، وقليل منهم يستطيعون تفسيره، فما هي اللذة التي نكتسبها من الحلم لو أننا قمنا بفصل حياة الأحلام عن حياة اليقظة؟، فالإشباع الذي يمنحه الحلم يبقى وحيداً في عالم الأحلام،

فالنتيجة أن الأحلام لا غاية منها ولا هدف في عالم اليقظة، فالحالم والمستيقظ هما إنسان واحد من ناحية علمية.

أما بالنسبة لوجهة نظر علم النفس الفردي، فقد كانت أكثر المشكلات التي واجهتني هي العجز عن دراسة وتحليل فهم الأحلام منذ أكثر من ربع قرن، كنت أعلم أن الحياة لا تتعارض مع الأحلام واليقظة، فهما متوازيان يسيران باتجاه واحد، فالفرد له نفس الهدف هو "التفوق" بالأحلام واليقظة أيضاً، فالحلم بالنهاية ما هو إلا ناتج من نتائج أسلوب الحياة للأفراد، ودائماً يتفق معها كل الاتفاق، فالأحلام بشكل عام هي مصادر للعديد من الرموز والتشبيهات كما قال أحد علماء النفس: "نحن شعراء في أحلامنا".

فلماذا يا ترى نتحدث الأحلام بلغة الشعر والتشبيهات؟ ببساطة؛ لأننا لو تحدثنا بشكل مباشر بدون رموز، فلن نقدر أن نهرب من الواقع والمنطق الذي يحاصرنا طوال

الوقت، والفطرة السليمة التي نشأنا عليها، ربما كل تلك الرموز والتشبيهات قد يُساء استعمالها بشكل عام، ويمكن الوصول إلى نتائج غير مجدية، مثلاً: لو أننا أردنا تصحيح سلوك أو تقديم نصح لأحدهم سنقول: "لا تتصرف كما يفعل الأطفال"، "أنت دودة يتوجب دهسها بالأقدام"، فكانت تلك التعابير والتشبيهات متسللة لمشاعر أحدهم؛ لإثارة الغضب، وتنفيس المشاعر التي بداخله، ومن هنا يبدأ سوء فهم الحياة.

يحمل كثير من البشر بالطيران، وأن يصبح طياراً، ومفتاح ذاك يتحقق من خلال أحلامهم كما يؤمن بعضهم، فهذا الحلم يحث البعض على الجرأة، والتحلي بالشجاعة، والشعور بمتاعب الحياة؛ لتحقيق الهدف الذي يسمو إليه.

من هنا ينشأ "التفوق" لدى البعض، وقد يصبح يوماً من الأيام حلماً سهلاً مُستساغاً، يتلقى التشجيع من حوله:

"استمر"، "حقق حلمك"، "لا توجد صعاب في دربك".
ومن هنا يسأل الحالم نفسه: هل يتوجب عليّ الاستمرار
أم لا؟

قليل جدًّا من البشر مَنْ مرُّوا بحلم السقوط ولو مرة
واحدة على الأقل في حياتهم، هنا يكون العقل البشري
مشغولاً؛ ليحفظ كيانه بعيداً عن كل معنى يحضن الهزيمة
والانكسار، ينشغل بتطوير الذات، وإيجاد سبل لحل
الصعوبات التي تواجهه، مثل أننا ننهي الأطفال عن بعض
التصرفات بحكم العادات والتقاليد:

- "لا تقف على الكرسي".

- "لا تلعب بالمقص".

- "احذر... ابتعد عن النار".

فمن هذا السلوك قد أحطنا الأطفال بأخطار وهمية؛

لنشئ شخصية جبانة مهتزة، فلن تساعدكم هذه التربية على مواجهة صعوباتهم في الحياة.

إن الأحلام تلعب دوراً أساسياً في تنشئة الطفل وشخصيته إلى أن يكبر، فقد يصحو الطفل منزعجاً من حلم راوده، ولم يستطع بطريقة أو بأخرى الإخبار عنه، أو البوح به لأحد.

أحياناً ترافق الأحلام في سبات حياة الأطفال مروراً بمراهقتهم، وصولاً إلى مرحلة نضجهم.

لا يمكن تجاهل الأحلام وكأنها عابرة سبيل، فلولا أهميتها لما وجدت كتب لتفسير الأحلام والرؤى، ولما كان هناك أشخاص بارعون في تفسير ما يرونه في أحلامهم.

إن الأحلام المبكرة والغافية عن أذهاننا تفسح الطريق لنا للتدبر عن المقاطع المرئية التي نراها بمجرد أن أغمضنا أعيننا وأطبقتنا رموشنا.

قد يأتي وحي لينبه الحالم بعدم المشي في هذا الطريق، أو
يترك الامتحان به بعض الأسئلة.

الفصل السادس

تأثير العائلة

دعني أبدأ أيها القارئ كما خطر على ذهنك حين قرأت العنوان.

إن دور العائلة يقترن بدايةً بدور الأم فمنذ اللحظة الأولى يسعى الطفل للارتباط بها؛ ليحقق هدف لتصرفاته البدائية، فالأشهر الكثيرة القادمة ستلعب الأم الدور الأساسي الأهم في حياته ليعتمد عليها بصورة كاملة، وفي مثل هذه الظروف ينشأ التعاون بينهما.

إن الأم تمنح العلاقة الأولى للطفل على غرار أي إنسان آخر؛ نتيجة لذلك نجد أول شيء يهتم به الطفل هو ذاته، فهي تمثل له الجسر الأساسي الذي يربط بينه وبين الحياة الاجتماعية، أما عن الطفل الذي لا يرتبط بوالدته على الإطلاق أو بأي شخص آخر، فمن المحتمل أنه يعيش مرارة الأيام، ويتذوق معنى الموت البطيء في حياته.

تسعى الأم إلى تطوير العلاقة بينها وبين طفلها، فتبدأ بتدليله وإطلاق الألقاب عليه وتنظيفه وإطعامه، وتحدث معه لزيادة فرصة الارتباط معه أكثر فأكثر.

أما عن الأم التي لا تمتلك مثل هذه المهارات، فإن الطفل سيلاحظ كل ذلك ويقاومها، فعلى سبيل المثال: تجهل الأم كيفية إدخال الطفل إلى الحمام، سيجد الطفل أن وقت الحمام عصب و شاق، ولن يستمتع بالتجربة بل سيسعى للهروب، والنكد، والصراخ بعدم تكرارها مجدداً، سيحاول الطفل عدم الارتباط بالأم التي تجهل رغباته.

لذلك يتوجب على الأم أن تكون ماهرة وخبيرة في التعامل مع طفلها، وأن تمتلك استراتيجيات محفزة لديه كوضع أصوات وحركات على سريريه في وقت النوم، فهي تلعب الدور الأساسي في تنظيم حياته، فمن الشهور الأولى لطفلها عليها أن تحدد له وقت النوم، والطعام، واللعب،

وأن تسعى دومًا لإظهاره بشكل نظيف ومرتب، كي يكتسب الثقة بنفسه.

لا يوجد سر غامض أو خلفة سحرية لاكتساب مهارات الأمومة إلا عن طريق حب التدريب والتعلم وعدم الإهمال.. فتبدأ الخطوة الأولى في تجهيز الأم المربية منذ نعومة أظفارها بين إخوتها بتسليط ضوء المسؤولية عليها برعايتها كالأم تمامًا، فأنا لا أشجع تعليم الفتيان والفتيات المهمات والمسؤوليات نفسها طيلة الوقت، مراعيًا الفروق والحاجات لكل منهما.

أما عن دور الأب الحاني، فلا يقل أهمية عن دور الأم في تنشئة الطفل، وتكوين شخصيته، رغم أنه من البداية يكون أقل تواصلًا مع الطفل، إلا أن ذاك لا يستدعي تنحي دور الأب في حياة الطفل.

إن الطفل يسعى إلى العيش بيئة آمنة بعيدة عن الصراخ

والمشكلات بين الزوجين، فغياب الأب عن الطفل يشكل له العقدة النفسية في النقص، والحرمان، والعزلة، وكأن شيئاً ما قد سلب منه، فإن الزوج غير السعيد يفجر هذا الشعور لدى الطفل بدق ناقوس الخطر بشخصيته حين يكبر.

إن الأم ستشعر بالعجز عند اعتبار أن الأب جزء من العائلة، وجزء لا يتجزأ في بناء شخصية الطفل، فقد تملكها الرغبة بتملك الطفل وإبعاده عن أبيه، ففي بعض الأحيان يحاول كلا الزوجين غير المتفاهمين، وغير السعيدين، الاستحواذ والهيمنة على الأطفال كأحد الأسلحة المشروعة في الحرب الناشبة بينهما، فيحاول كلاهما أن يربط الطفل لصالحه، وأن يجعل حب الطفل لأحدهما هو الحب الوحيد في حياتهما، فحين يلحظ الطفل وجود الخلافات الزوجية في المنزل يستغل هذه المهارة لصالحه؛ ليبدأ التنافس بين الأم والأب في التحكم به، أو تدليله بغرض امتلاك حبه، وجلبه

إلى صالح طرفه.

في مثل هذه الأجواء يعجز الطفل عن إدراك معنى التعاون في حياته؛ لأنه من البداية لم يلقَ تربية تحثُّه على ذلك، فبنظره فاقد الشيء لا يعطيه، فينشأ عنده مفهوم الحياة الخاطيء، وينشب سلوك مزعج في تعامله مع الآخرين بشكل منفرد.

ودعني أضيف لك عزيزي القارئ أن دور العائلة لا يقتصر فقط على الزوج والزوجة، بل إن ترتيب الطفل بين إخوته هو الذي يتمحور حوله تكوين شخصيته، فالطفل الأصغر بنظري هو الأنجح بينهم على عكس إخوته، فالطفل المدلل هو الذي يقف ويراقب كل ما حوله، ويكتسب الخبرة من أخطاء إخوته الذين يكبرونه عمرًا.

تُسلط عليه الأضواء؛ ليكون هو المدلل حيناً أو المهمَّش حيناً آخر.

تعتمد شخصية الأزواج في تركيز الاهتمام أو الإهمال في ترتيب أبنائهم.

ترتكز فرحة الأم والأب ورمي ثقل الاهتمام بالابن الأكبر، فهو الهدية الأولى في حياتهما، وكأنهما قطفًا ثمرة زواجهما بمولودهما الأول، فيسعيان إلى تأمين أجمل الملابس وأنظفها، ومكان هادئ مليء بالأجواء التي تريح الطفل.

تنبثق النزاعات بين الأسرة؛ لعدم العدالة بين الأبناء.

تخلد في قلوب الأبناء مفاهيم الاضطراب والعزلة بأن الحياة ليست وردية، فكل الاهتمام للأخ الأكبر والأصغر فماذا عن الأوسط؟، ومن هنا تصدر من قلبه وتفكير عقله مشاعرُ النقص، والتهميش، واهتزاز شخصيته، بأن لا قيمة له بهذه الأسرة.

أما عن الأسرة التي تسعى إلى تحقيق جميع رغبات أبنائها باختلاف أعمارهم، فهي أنجح بالتربية، فيسود جوٌّ من الطمأنية بالتعاون مع الآخرين، وخلق مجتمع يسوده المحبة بعيداً عن الأمراض النفسية التي يحتل عرشها الأنانية والتفكير بالذات فقط، بعيداً عن التفكير بالطرف الآخر.

إن الأسرة هي المفتاح الأساسي في تكوين شخصية الطفل بجميع مراحل حياته، فإن فسدت تربيتها انهدمت شخصيته، وتزعزع كيانه، وضاع باحثاً لعلّه يجد نفسه في الحيلة.

أما إن سعت العائلة في زرع قيم ومبادئ لدى الطفل، فمن المرجح القول: إن مفهوم الحياة لدى الطفل بات سهلاً وفي متناول التعامل السهل.

الفصل السابع

دور المدرسة وتأثيرها

إن الوجه الجديد للتعليم يتدحرج من عجلة المدرسة التي امتدت بالأساس من الأسرة؛ لبناء شخصية الطفل ساعياً في فهمه الصحيح للحياة، فلو أن الأب أو الأم امتلکا القدرة على تعليم أطفالهما، وتهيئتهم لحل مشكلاتهم الاجتماعية لما كنا بحاجة ماسة لوجود المدرسة.

في الماضي.. كان يتم تدريب الطفل بطريقة متكاملة داخل نطاق الأسرة، فالإنسان الحرفي يعلم ابنه ويدربه بكل المهارات والقدرات التي امتلكها طوال خبرات سنيته، ولكن في وقتنا الراهن حضارتنا ترمي الثقل على أكتافنا؛ لتحمل المسؤولية بشكل معقدٍ نوعاً ما.

إن وجود المدارس يخفف العبء والثقل النفسي الذي تحمله الأسرة، ويكمل الدور الذي بناه الأم والأب، فهذا هو التكامل الاجتماعي الذي يتطلب وعياً أكثر لوجود

مستوى تعليمي أكثر فاعلية، ولتعويض النقص التعليمي الذي لم تستطع العائلة القيام به.

لم تمر المدارس الأمريكية بالمراحل التي مرت بها المدارس الأوروبية، فإلى هذا الوقت ما زالت بعض العادات والتقاليد المستبدة التي انتشرت في أوروبا آنذاك موجودة، ففي تاريخ التعليم الأوروبي اقتصر التعليم على الأمراء والطبقة الأرستقراطية فحسب، فهم الذين يملكون القيمة بين فئات المجتمع، أما عن الطبقة الكادحة، فهي محرومة من تلقي التعليم.

إن تلك الفئة المجتمعية الأرستقراطية غرست في نفوس الآخرين أن لا قيمة لهم، وأن عليهم بذل كل جهدهم في خدمتهم، والسعي لإرضائهم دائماً، ومع توالي الأيام، ومع ازدياد البشر اتسعت فئة المجتمع المحبة لتلقي التعليم، فقد سعت المعاهد الدينية على عملية التعلم والتعليم باختيار فئة

قليلة من المجتمع للدراسة بتلقي علم اللاهوت، والفنون، والعلوم، وبعض الحِرَف، ومع التطور التكنولوجي، باتت كل المدارس القديمة غير مناسبة لإشباع حاجات الفرد بالتعليم، وتكوين شخصيته التي تسعى لفهم الحياة، وماذا تعني له، فالمدرس الذي يعيش بالقرية، والذي اعتاد استخدام العصا بالتدريس لن تنجح ولن تواكب استراتيجيته في التدريس بالعصر الراهن؛ فإن النتائج التعليمية حتماً هي بالغة السوء، بالإضافة إلى المدارس الدينية والجامعات التي كانت تركز على تعليم الفنون، والعلوم؛ لتقديم العلم للأباطرة، فكانت نتائج تعليمهم بامتلاك أفراد كالأباطرة لا يجيدون القراءة والكتابة.

إن الثورة الصناعية هي الكفيلة بخلق علم الرياضيات، والرسم، وأهمية تدريسه، ووجود مدارس حكومية في عصرنا الحالي كما تشهد أنت وأنا.

إن الهدف الأساسي لوجود هذا النوع من المدارس هو سد حاجات العمل، والعمال، ومتطلبات الزمن الذي نحيا به.

إن العملية التعليمية تكمن بدور العائلة والحكومة في رسم شخصية طفل يفهم معنى الحياة، ولماذا يعيش؟، ولكن الدور الأهم هو للمعلم الذي بإمكانه أن يعيد الشكل التعليمي بشكل أكثر نجاحًا باستخدام الاستراتيجيات، والأساليب التي تصقل شخصية الطفل، وتنمي مهاراته.

يجب تدريب المعلم حديث التخرج على تنمية شخصية الطفل، فإن أحد الأطفال منذ يومه الأول في المدرسة كان يستهزئ بكل ما يتفوه به المعلم، فأظهر عدم اكتراثه بكل ما يقوله أستاذه، حتى إن جميع العاملين بالمدرسة ظنوا أنه متخلف عقليًا.

قد تم عرض الطفل عليّ لتشخيصه، فسألتُه:

- إن الجميع هنا في المدرسة يتعجبون من سبب ضحكك،
وسخريتك المستمرة.

فأجابني:

- إن المدرسة نكتة مضحكة أسسها الآباء، فهم يرسلون
أبناءهم للتخلص منهم، وقضاء وقت مريح؛ لهذا أضحك..
لربما لن تفهم قصدي.

إن هذا الطفل قد تعرض لكثير من الغيظ والكبت في
المنزل، فتكمن لديه قناعة أن أي حدث جديد ما هو إلا
أضحوكة وسخرية ليعبث به، لقد أظهرتُ له أن لديه
كرامة، ومكانة في المدرسة بقدر المستطاع، وأنه محبوب لدى
الجميع.

توالت الأيام، فشعر بقيمة نفسه، وبدأ عليه الاهتمام الجاد
بالعمل المدرسي، وقد حصل على نتائج فصلية مُرضية فيما

بعد.

إن علاقة الطفل مع المعلم لا تختلف كلياً عن علاقته بوالده، فالطفل أو الطالب يحب مَنْ يُصغي إليه عند حديثه عن أحداث يومه، ومجريات حياته، بل إن الطفل يميل إلى من يسأله: ماذا صنعت اليوم؟ ماذا تُفضل؟ ماذا تُحب؟ لماذا تبدو حزيناً اليوم؟ كيف تحب أن نقضي وقتنا؟، وما هي أفكارك؟ أعطني رأيك.

إن كل تلك الأسئلة تدفع الطفل إلى حب التعلم، والأسئلة أكثر عن الحياة، ساعياً لإدراكها، والعيش بها على الوجه الصحيح.

إن المعلم هو الشمعة التي تضيء عقل وقلب الطفل، فلا يمتلك الطفل مرساة سوى يد معلمه التي تبخر به إلى بحر المعرفة، وصقل مهاراته ومواهبه، فلا يجب أن نتجاهل الطفل بكل أحاسيسه وقدراته.

إن العقاب والثواب يلعبان دورًا أساسيًا في حياته، فالطفل يقضي نصف يومه وبقية حياته على مقعد الدراسة، فعلى الأدرج يجلس الطالب ذو الحركة المفرطة، النشيط، الهادئ، المبدع، المجتهد، الكسول، غير المبالي.

إن الغرفة الصفية تمثل شريحة مختلفة من بيئات عدة في المجتمع، وعلى المعلم أن يحتويهم جميعًا بذكاء وبعدالة.

يوجد مجموعة من الأطفال "الطلاب" تنتظر العقاب كتحذٍ شخصي لديهم، فمنهم من يعتبره مباراة للعبث بها، ومنهم من يضحك أثناء تلقي العقاب، ومنهم من ينافس للصمود إلى نهاية التوبيخ وصولاً إلى تحقيق النصر في نظرهم، فهناك كثير يضحك بدلاً من نزول دمعاته والبكاء على ما حلَّ به.

في أغلب الأحيان يكون الطفل الكسول هو الأكثر طموحًا، إلا إذا كان كسله هجوماً من قبل والديه أو معلمه،

فالنجاح يفهمه الجميع بطرق مختلفة، وكل حسب منظوره،
فهناك فئة كسولة تحاول التخلي عن الملل والحمول، لكنه
يتخذ الكسل مكاناً وملجأً آمناً؛ ليستمتع بأحلام اليقظة،
فيقول: "لو حاولتُ لاستطعت الإنجاز أكثر".

بوقت فشل الطفل الكسول، فإنه يفتح ذراعيه ليبرر ذلك،
ويقلل من أهمية فشله، فيقول في نفسه: "لقد كان الكسل هو
الذي دعاني للفشل، وليس بسبب مهاراتي وقدراتي".

وهناك نوع من الكسالى يقول: "لو اجتهدت ودرست
بإخلاص أكثر لكنت بسهولة من أذكى التلاميذ خلال
الفصل الدراسي".

وهذا هو مرتبط الفرس، فمثلاً لو أن الطفل الكسول حقق
بالفعل السعي وراء تحقيق سمعته بدون جهد، فلماذا عليه
أن يخاطر ويجتهد أكثر؛ ليتغلب على الفشل؟، فلو حقاً تخلى
عن كسله لحقق النجاح، فمن المرجح أن ينجح، ويتفوق

على أقرانه؛ ليحافظ على سمعته.

الفصل الثامن

ما بين البلوغ والمراهقة

إن هناك كثيراً مَن يُغشى عليهم عند التعامل مع هذه المرحلة الحساسة، فالتعامل معها وكأنك تتعامل مع أزمة خطيرة بتغيير شخصية الفرد أجمع، فالمرهق يتعرض أثناء مسيرة حياته إلى بعض المخاطر التي تكفل إلى تغيير حياته لمنحنى آخر، فالطفل الذي يكون على وشك البلوغ يواجه مواقف غريبة، وجديدة في حياته، دون أن يلحظها غيره أو مَن حوله.

إن البعد النفسي للشباب الصغار يكمن مفهوم المراهقة لديهم بمعنى واحد، ومشارك، ألا وهو إثبات النفس، وعدم البقاء أطفالاً تحت تحكم الأم والأب.

بإمكاننا نحن -البالغين- توضيح الأمر لديهم، والوقوف بجانبهم في مواقف حياتهم بشكل مبسط.

إن المراهق الذي يركز على إثبات نفسه سيُبقي أضواء المصابيح مسلطة على ذاك فحسب؛ ليصبح هو الشغل الشاغل في فترته، فالمراهقة ما هي إلا شعور الاستقلال الذاتي، والبعد عن الاتكالية، وصولاً في نظرهم إلى مرحلة الرجولة المبكرة، أو الأنوثة الكاملة بالنسبة للفتيات.

إن كلمة راشد ستكسر كثيراً من القيود التي تحصرهم في منظورهم، فينتشر هذا السلوك بين فئة المراهقين؛ ليحددوا كيفما يشاؤون الممنوعات والمرغوبات في نمط حياتهم.

إن الطفل المطيع الخاضع لوالديه لم يغير موقفه في المعارضة لهما، ولكن هذه المعارضة لم تظهر إلا بعد إطلاق سراحه في مراهقته، وشعوره بالاستقلالية؛ ليثبت لهما أنه قادر على عدم الانصياع لهما، وإثبات رأيه بعدم الطاعة.

فإليك أيها القارئ هذه القصة العابرة التي قد تصادفها أنت في حياتك أيضاً: كان هناك طفل يتحكم أبوه في

مجريات حياته؛ في طريقة التحدث، والأكل، والشرب، واختيار الأصدقاء، وألوان الثياب.

قد بدأت عليه معالم الاستسلام، والخضوع له، والاستماع إلى كل أوامره، وبمجرد أن أصبح مرهقاً، وشعر بالمزيد من القوة، والاتكال على نفسه، فتحدى والده علانيةً، وعاركه، وترك له المنزل بعد أن ضربه ضرباً مُبرِّحاً.

كثيراً ما يخطئ الأم والأب في إعطاء الاستقلالية المطلقة للمراهق من باب عدم التدخل في استقلاله، وحرية، وعدم مراقبته، وتسليم زمامه إلى أيام الحياة كي يتعلم هو بنفسه، ويكتسب الخبرة بيديه.

ستأتي اللحظة حين يُبدي أحد الوالدين رأيه عليه، لكن نتيجة ترك الزمام له سيلوذ بالفرار، وعدم الاكتراث بقوله، مما يخلق جوّاً عدائياً مناسباً لما نسميه بثورة المراهقة.

يواجه المراهق تحديات عديدة في فترة البلوغ؛ قد يعاني من الخوف وقتما يكتشف أنه يقترب شيئاً فشيئاً من الصعوبات التي تواجهه، كبناء مستقبل وظيفي له، وقد يعاني من الارتباك، والتوتر في التعامل مع أفكار الحب والزواج في حياته فيما بعد، فإن تلك الأفكار تمنحه فرصة لفقد الأمل بفهم الحياة لتلبية متطلباته بسهولة.

حين يحاط المراهق بصحبة كثيرة وسط الناس، فقد ينبع عنده الخجل، فيفضل العزلة، والتنحي عنهم، فيبقى بالمنزل، سيشعر أنه فاشل في كل جوانب الأعمال في حال بقاءه منعزلاً عن المحيط الخارجي.

قد تواجه مرحلة المراهقة العديد من المشكلات، كالطفل الذي تعرض للتدليل، والتمسك بمرحلة الطفولة، فتنبثق دون تخطيط جرائم صغيرة في بعض الحالات، وأكثرها صعوبة المتعلقة بالمراهق الذي يسعى لحل مشكلاته بعناد

دون الاستعانة بأقرب الناس لديه، فيحتفظ بقدراته العشوائية؛ ليجد نفسه ارتكب جريمة مجتمعية، فالجريمة هي وسيلة الفرار لمواجهة مشكلاته، وأزماته التي لم يستطع الآخرون فهمها بنظره، أو حتى تقديرها.

الفصل التاسع

الجريمة والسعي لمنعها

يستطيع علم النفس الفردي أن يعلمنا التعرف أكثر على أنواع البشر، وأنماطهم، وطرق تفكيرهم، فهناك قواعد مشتركة بين أجناس البشر مهما اختلفت لغاتهم، وجنسياتهم، وعروقهم، فمثلاً بإمكاننا أن نحدد أنواع الفشل؛ لتكون ظاهرة في تحقيق جريمة مجتمعية يغفل عنها الكثير، قد تحصل عند الأطفال المحبين لاختلاق المشاكل وجو عدائي.

إن المجرمين هم الذين يسعون لإشباع رغبتهم في التفوق حسب منظورهم، فالمجرم هو مميّز بقيامه بحدث مختلف عن أقرانه، فيسعى ليحافظ على كبريائه وذاته دون التطلع إلى النتائج المرافقة لأعماله.

هذا الشعور الإجرامي يأتي من مشاعر مبكرة منذ نعومة أظفاره، ويستمر لآخر يوم في حياته، لربما قد أساء فهم

الحياة، بل إن الحياة كانت تعني له جريمة، وعليه تحقيقها. لا بُدَّ من ذكر البيئة ودورها الفعال في خلق الجُرم والمجرمين، بل إن الوراثة والتغير الذي يحدث للمجرم يلعبان دوراً أساسياً في خلق مثل هذا النمط من الشخصيات في المجتمع.

إن الكثير يظن أنه بإمكاننا الاستغناء عن المجرم، والعيش بدونه، ويجب التخلص منه حسب اعتقادهم؛ لأنه يشكل عبئاً على المجتمع الذي يحتضن أشكالا مثله، فيقول أحدهم: "إن المجرم لا يقدر أن يغير سلوكه وطبيعته إذا ما بدأ في حياة الجرائم، وانغمس بها؛ فهو مجرم، وسيبقى كذلك".

إن الوراثة والبيئة - حقيقةً - لا تحكمان على المجرم بسبب ارتكابه لفعل هذه الجرائم الشنيعة، فكم من مجرم يندرج من عائلة لا غبار عليها!، وكم من مجرم وُلد في بيئة سليمة!،

ولكن كل ما علينا فعله هو - حتى وإن وقع الفأس بالرأس - السعي نحو استقامة حياة المجرم العوجاء، وتقييم سلوكه قدر الإمكان باعتباره إنساناً، وإن صح التعبير إنساناً مجرمًا. إن السعي وراء حل مشكلات المجرمين هو خير علاج، فالسارق الثلاثيني مثلاً إذا ما استطعنا تقويم سلوكه، وإرشاده نحو الطريق الصائب سيُنتج في مجتمعاتنا مواطنًا صالحًا، فنسعى إلى طي صفحاته الماضية، والتركيز على حاضره؛ لبنني مستقبلًا جديدًا بعيدًا عن اللوم، وتأنيب الضمير القاتل.

دعني عزيزي القارئ أسهب في طرح القضية، فقد قرأت ذات مرة مذكرات مجرم مراهق كتب فيها:

"لا تهمني نتائج تصرفاتي، فالموت حتمًا زائر لأيامي، فأنا مهما فعلت ما زلت نكرة، مُهملاً، مُهمَّشاً لدى الجميع، ها قد أردت إصلاح نفسي، والبدء من جديد، وترك حياة

الجريمة، ولكن ما زال الكل يتنحَّى عني، ويتجنب القول معي؛ لأنني إنسان مجرم، حتى الفتاة التي أحببتها تنأى عني، رغم أنني قمت بالسرقة دفاعاً عن حبي لها، وتأمين كل ما ترغبه، ولأتزوجها، فعلاً أريد الموت".

إن التعاون المجتمعي في التخفيف عن المجرم، وعدم الإشارة نحوه بالاتهام يساعد في نشئة بيئة تصد الجرائم فيما بعد.. أما مع استمرار اللوم، وكثرة العتاب ستكثر حالات الانتحار، فيجب وضع حياة المجرم بكفتي ميزان، كفة العقاب، وكفة التعاون؛ لإرشاده بعدم تكرار ما قام به.

إن الندم وتأنيب الضمير بعدم الرجوع إلى الجريمة تُظهر له أن الحياة ما تزال بخير.

سيختلف مفهوم الحياة لدى المجرم عندئذ وعند الناس، فهناك مجرم يشعر بالفخر بتحقيق إنجازاته بالقتل، السرقة، العنف مثلاً، وهناك مجرم يود تكسير كل مرآتي الحياة التي

عكست سوء تصرفاته في مراهقته، فيطأطئ رأسه، وينهزم
لكلام الناس، هارباً من الاستماع إليهم، فينعزل؛ ليتدبر ماذا
تعني له الحياة؟، ولماذا يعيش إذن؟، ولمَ لم يتلقَّ جزاء الموت
أفضل من بقاءه بين ألسنة البشر بكلامهم اللاذع.

الفصل العاشر

مشكلة العمل

إن الحياة بمنظوري، وبمنظور علم النفس مكبّلة بقيود ثلاثة، دعني عزيزي القارئ أطرحها عليك ببساطة؛ لأنك قد اقتربت من فهم الحياة عن كثب.

القيد الأول:

إن البشر يعيشون على سطح كوكب الأرض بما فيه من موارد بشرية، وثروات، وخصوبة تربة، ومناخ، وما إلى ذلك من النعم الطبيعية، يسعى الإنسان دومًا إلى حل مشكلة العمل في الحياة، فتنبثق مشكلة أخرى؛ ألا وهي مشكلة المجتمع، لذلك ينشب الخلافات في التعايش مع ذاتنا، وكجزء من أفراد المجتمع في بيئة العمل.

لا بُدَّ للجنس البشري أن يتعلم مفهوم التعاون؛ لتقليص مشكلات العمل والمجتمع معًا؛ لضمان رخاء، ورفاهية

البشر أكثر؛ لأن البشرية ستنتهي تدريجيًا طالما فكر كل مفكر بنفسه، وتلبية حاجاته بمفرده، دون اللجوء إلى التعاون المجتمعي.

إن تقسيم العمل بين الأفراد يجعلنا نستفيد من كامل قدرات البشر بتوزيع المهارات، والإمكانيات حسب طبيعة العمل المراد إنجازها للصالح العام.

القيد الثاني:

إن الكثير من الناس يتجنبون مواجهة مشكلات العمل والسعي لحلها، فينشغل كل فرد بنفسه؛ ليبعد كل البعد عن الاهتمامات البشرية الأخرى ضمن نطاق التعاون المجتمعي، فإن وقع أحدهم في مأزق أثناء العمل، وحاول الآخر مساعدته سيظن هذا تطفلاً لا أكثر.

أما عن القيد الثالث:

ليس بمقدورنا أن نكون إلا رجلاً أو امرأة فقط، ويأتي دورنا في استمرارية الجنس البشري الذي يعتمد على أسلوبنا بالتعامل مع الجنس الآخر، ولا يأتي ذلك إلا عن طريق احترام كل طرف لحاجات الآخر.

إن وظيفة الفرد يمكن استغلالها كعذر؛ للحد من المشكلات الاجتماعية، وأحياناً الزوجية.

لا يمكن حل مشكلات العمل بسهولة، فيجب على الفرد أن يكون مُهيئاً في حل كل ما يواجهه، فالتدريب المبكر يأتي من المنزل والأسرة بتعريف الفرد أن دوره سيأتي لاحقاً، ويكون في غاية الأهمية في بيئة العمل، فالأم هي المسؤولة في تهيئة وتطوير حياة الطفل الوظيفية، فكل جهودها التي بذلتها وهو في سن الرابعة أو الخامسة ستكون ثمرته حين يكبر، وكما أن المدرسة مسؤولة عن إعداد الطلاب؛ لخلق

جو وظيفي مريح، وتدريبهم على بيئة العمل في بناء المجتمع بشكل ناجح، فالطالب الذي يمتلك خلفية معرفية عن جو العمل سيحقق التعاون والتفوق الإيجابي الذي يدفعه لفهم الحياة بوجه صحيح.

صحيح أن الأخطاء المحتملة الوقوع تجعل الأفراد يختارون الوظيفة أياً ما كانت دون رضى منهم أو قناعة بالعمل، ولكنها تجعلهم يسعون نحو "التفوق" بطريقة بسيطة تضمن لهم البقاء؛ لإثبات ذاتهم، والحفاظ على كرامتهم.

هناك مجموعة من الأطفال القيايين الذين يسعون لاختيار الوظائف القيادية التي تشبع طموحهم نحو التفوق المطلوب، فالميلول والطموحات تختلف من شخص لآخر في مراحل مبكرة من حياته، وهذا يظهر بصورة واضحة عند العباقة.

بالنسبة لي عزيزي القارئ إن العبقرى يستطيع تسليط الضوء على كل المشكلات التى تواجهه من كل جوانبها.

إن العبقرى الذى يسعى طالبًا المصلحة العامة ضمن نطاق التعاون والتفوق هو من يستحق لقب عبقرى؛ لىواجه بكل إسهاب مشكلات عمله دون تدمير أو ملل.

يجب مراعاة المواهب والفروقات الفردية فيما بعد بين الأفراد؛ لتحقيق التكامل والنجاح المجتمعى، فىكون ذلك بالمعرفة الحقيقية لميول الطفل بما يجب ولا يجب، فمن السهل جدًا إلقاء أسئلة عليه؛ للتعرف أكثر على اهتماماته، فىكون نمو الطفل وتطوره أكثر بساطة من الذين جهلوا ميولهم ورغباتهم فيما يجب أن يعمل بالمستقبل، فنطرح سؤالاً مثل: ما هو العمل الذى تحب القيام به حينما تكبر؟

فالإجابة عن مثل هذا السؤال توفر الكثير من الوقت والجهد لنجاح العملية الوظيفية فيما بعد.

أما عن الذين لا يعرفون إجابة السؤال، فيجب مراقبتهم، وإرشادهم بالأعمال المناسبة لهم ولقدراتهم، دون فرض السيطرة عليهم وإجبارهم.

إن العمل والبيئة الوظيفية تجدي نفعاً في فهم الحياة، وتحديد هوية الفرد بالإجابة عن الاستفسارات التي لم يقبض عليها بعد.

تختلف مفاهيم الأفراد ومعاييرهم في إيجاد المصطلح المناسب للحياة، فالحياة بكل مراحلها تبني بعضها البعض منذ القدم وإلى يوم الأزل؛ لذلك: إلى كل الآباء والمعلمين المهتمين بتنشئة الأفراد في بيئة سليمة.. عليكم تهيئة وتنشئة الأفراد منذ طفولتهم؛ ليدركوا أهمية تقسيم العمل.

الفصل الحادي عشر الفرد والمجتمع

إن رغبة البشر في الاتحاد من أقدم الطموحات الإنسانية، فاهتمامنا بالآخرين هو الذي أفسح المجال بالتقدم والمضي قدماً، والعائلة منظومة تشعرنا بضرورة الاهتمام بمن حولنا، ومنذ أوج الحضارة كانت غريزة البشر بالعيش ضمن عائلات.

إن أبسط الديانات البشرية كانت عبادة الطوطم totem هناك جماعات عبدت وقدّست السحلية، وأخرى عبدت الثعبان، فأما الذين عبدوا الطوطم عاشوا، وتعاونوا ضمن معتقداتهم بأن كل فرد مسخر لبقاء الفرد الآخر.

إن الدين يحدد المبادئ لقيام مجتمع صالح بعيد عن الأنانية، فينشأ التعاون فيما بينهم، فيبدأ الفرد بالتفكير والتدبر:

- "لماذا يا ترى يتوجب عليَّ حب جاري؟".

- "لماذا عليَّ أن أحب لغيري ما أحب لنفسي؟".

إن كل الأسئلة هذه تساعد في فهم الحياة بشكل أعمق،
إلا أن الطفل المدلل بشكل زائد لم يدرك الإجابة بعد، فهو
ما زال يؤمن أن الجميع مسخرون له ولإرضائه.

كلنا نعلم كبشر بإساءة استخدام أحسن الطرق وهي
السياسة، فلن يتمكن أحدهم من إنجاز شيء إلا من خلال
السياسة، وتنفيذ القوانين، فقانون الغابة غير مشروع في
المجتمع البشري، فالتكافل والعيش مع الآخر يوحى أن
الحياة ما زالت تنبض.

إن نقص الشعور الاجتماعي، والفشل في التواصل
يتدحرج من كرة الاهتمام بالذات الزائد، فتتسلط العيون
حول رؤية الفرد نفسه فقط دون أن يرفع نفسه؛ ليدرك أن

مَن حوله بشر يريدون يده لمدِّ العون.

فالأُمراض العقلية تنبثق من فشل التواصل مع الآخرين،
فيكون هذا حسَّاسًا من تقبُّل النقد أو تقبُّل الرأي الآخر،
ويكون ذاك عصبيًّا لا يُصغي إلى مَن حوله، وأما عن ذلك،
فيكون غاضبًا، منزعجًا، غير راضٍ بما كتبه له الحياة، فتكبر
لديه بقعة الأنانية، والاكتفاء بنفسه فقط.

إن الذكريات الأولى والأحلام تؤثر في كيفية عيش الفرد
مع المجتمع.

سيتساءل الفرد فيما سيتقبله أو يرفضه، فيقول مثلاً:
"كنت أرغب بالاستلقاء على تلك الأريكة، ولكن أخي
كان نائمًا، فبدأت بالبكاء كثيرًا حتى تركها لي".

وهذه هي الذكريات الأولى لدى الأفراد التي من
الصعب نسيانها وتهميشها؛ فهي الأولى والأخيرة في تكوين

شخصياتنا؛ لنكون جزءاً لا يتجزأ من المجتمع الذي نعيش فيه.

ومن هنا يأتي دور المجتمع في تحقيق العدالة بين الأفراد، فكما يهتم الفرد بزميله الآخر.. على المجتمع تقديم الفرص له، ووهبه مزيداً من المجالات التي توائم تفكيره، ومهاراته ومطالبه، بعيداً عن الإهمال الجسيم الذي قد يحدث من قلة الاهتمام الاجتماعي.

الفصل الثاني عشر الحب والزواج

إنني أشعرك عزيزي القارئ؛ لأنك أوشكت الوصول إلى ما تعنيه لك الحياة، فهذا الفصل الأخير من الكتاب.. يقدم لك المرحلة التي سيمر بها ذاك الطفل الذي أوجزت لك بالشرح عن تنشئته وتربيته وصولاً إلى انخراطه بالمجتمع.

إن أهمية الحب، والتعاون، والاهتمام الاجتماعي لدى الفرد، تذكرني بدولة ألمانيا التي تهيئ للشباب والفتيات ظروفًا تثقيفية بفترة الخطوبة؛ لإدراك معنى الحب الذي يعيشه كل منهما؛ ليتقلا بقناعة إلى مرحلة الزواج بطريقة ناضجة تكفل إنشاء أسرة سليمة تبني مجتمعًا صالحًا.

الحب والزواج يضمنان تحقيق التعاون البشري؛ لتكوين مجتمع ناجح يراعي أساسيات الفرد منذ نشأته، فإن تحقق بالصورة الصحيحة ينمو مجتمع مزدهر مليء بالشخصيات التي تسهم في بناء جيل واعٍ لمفهوم الحياة بالمعنى الصحيح.

إن الاستعداد للزواج غالبًا ما يكون نادرًا؛ فالتعليم والتجريب المستمر يركز على النجاح الشخصي، وعلى ما تقدمه لنا الحياة بفهم معاييرها، ومتطلباتها بشكل مناسب. إن أسلوب الحياة، والوالدين، وموقفهما من الزواج يتفق مع التدريبات والتهيئات التي قُدمت للفرد من طفولته لمراهقته، وصولاً إلى نضجه من كافة نواحي الحياة من أسرة، ومدرسة، وبيئة مجتمعية.

إن من أنجح الطرق وأكثرها نفعًا هي الصداقة بالعمل؛ إذ تتيح مجالًا بالزواج الناجح بفهم كل طرف للآخر بالمعنى التعاوني للمجتمع، فيجب على كليهما تهيئة النفسية لتقبل الآخر، وتحمل المسؤولية باستخدام بعض الوسائل الشائعة التي تضمن نجاح علاقتهما.

إن الخيانة أمر يمكن حدوثه، ولا بُدَّ علينا أن نتقبل إمكانية وقوعه بالفعل، وما أصعبها من خيانة زوجية!!

هل أصل هذا النوع من الخيانة هو عدم الاستعداد الكافي للزواج بالطريقة الصحيحة؟ أم أن الطرفين لم يفهما حرية الآخر، فكانت النتيجة عدم الوفاء، وهدم الحب الذي كان أساس نجاح زواجهما؟ أم أن الحب يأتي بعد الزواج؛ ليكشف أسراراً أخرى خبأتها الحياة لهما؟

إن فترة الخطوبة، وأخذ الفترة الكافية للتعرف على الآخر تمنح القدرة للزواج بالدوام، أو القرار بإنهاء صلاحيته، فيفكر الرجل والمرأة في مرحلة الخطوبة على النحو الآتي:

- "ما هو الانطباع الذي تركته على الآخرين؟، وماذا أعني لهم الآن؟، وكيف يظنون بي؟".

من المهم السعي وراء إنجاح الزواج لكل أسرة في طبقات المجتمع أجمع.

يكن لدى البعض تعقيدات لفهم الحياة في مرحلة

الزواج، فمنهم من يشعر أنها بداية النهاية، ومنهم من يشعر أنها نهاية البداية.

جلستُ مرة على مقعد في حديقة قرب منزلي... تمنعت كثيراً في تلك الفتاة التي كانت تبسم تارةً، وتبكي تارةً أخرى!، لا أعلم ما الذي دعاني إلى سؤالها: ماذا تعني الحياة لك؟ فأجابتنني فوراً:

- "باتت الحياة لي كالمرح الذي عندما أصعد على خشبته لا أرى منه سوى عيونٍ دامعة أو مبتسمة تنتهي بتصفيق يشعل نوتات قلبي؛ لتعزف أجمل أغنية.

ها أنا أقترّب من حلم يكبر كل لحظة، ويكبر لأنّ أكون تلك الطيبة، الجميلة، البارعة، التي ترى جمال الحياة بعيون من تزهر أيامهم من جديد من سُقياها، ولكن كبر هذا الحلم حتى انفجر كبالون هواء، ولم أرَ نفسي إلا على مقاعد بين الرموز، والعناصر الكيماوية.

تلك الأيام لم تكن تعني لي الكثير سوى الضحك،
والهراء، واللهو هنا وهناك، فلم أعطِ للحياة قَدْرُها،
حسابها، ومعناها، تجري مياه هذا النهر؛ لِتُفاجَأَ أنها على
شطآن بحر جاف، وبانت كل معالمة.

ها وقد بدأتُ أصطدم بصخور الواقع بعد تخرجي الذي
كان كصعود جبل شاهق، والدرجة عنه، ولم ينتج عن
وقوعي سوى ندبات ما لبثتُ أن زالت بلحظتها.

كم عنت لي تلك النقود التي اجتريتها من سنام عملي!،
ولكنكم لم تكن هدفي كمقدار ما أناله من إطراء من هنا،
وإعجاب من هناك!، فما زلت لوقتها تلك النجمة، بل
وازددت لمعاناً وإبهاجاً.

ما زالت أضواء الحياة مسلطة على وجودي، على كلامي،
على حديثي، وعلى إنجازات عمري، بات النجاح يُزيّن أيام
عمري، فتارةً أنا بالعمل، وتارةً بنزهة، وأخرى بسفر، وكم

كانت جميلة تلك اللحظة التي امتلكت بها سيارة باسمي،
حتى وإن كانت قيادتي كطفل بمقتبل خطواته!!

كنت أرى نفسي ملكة توجتها الحياة على عالمٍ لم يرَ سواي.
كان الرأي رأيي، والحكمة من قولي، والتحفيز من إنجاز
عملي، كانت تعني لي الكثير بوجود سندي، وظهري،
رفيقي، وتوأم أُملي؛ أخي.

ماذا تعني لي الحياة؟

اسودّت لي الحياة، ولم أرَ بها نورًا عندما وصلتني تلك
الرسالة: (قد بدأتُ بأول جلسة غسيل كُلي)، فبدأتُ أُنحط
بمكاني كحصان أرعن لا يجد مَنْ يربطه، بدأتُ ساعات
عمري تركض يَمنة وَيَسرة باحثة عن ضوء لإنقاذ زهرة
حياة عمرها، وها قد جاء الأمل راکضًا كبرق إلينا، نحمد
الرب ونشكره.

انتقلت روحي حياة جديدة ببقعة أخرى على أرضه
سبحانه، زاد إشعاعي، وزاد رونق عمري جمالاً، وحباً
للحياة التي أصبح معناها ينحني لمنحني آخر، أصبحت
شمساً تشرق من جديد، يراها القريب، ويبحث عن رؤيتها
البعيد، كنت كنجمة من نجوم السينما التي يبحث معجبوها
عن ولو توقيع من يدها، أو نظرة من محياها، جميلة بفعل،
بقولي، بشكلي، وازدادت حياتي إشراقاً عندما عادت الحياة
لزهرة أيامها.

ما كانت تعنيه لي الحياة أنني أرى الحياة بحلوها، بزهوها،
بعيدة عن مرها وشقاوتها، لم أدرك أن الحياة قطار، أو سحابة
كما يقولون، بل لحظة أعيشها في حينها، بتُّ أعود بعجلة
أيامي كطفلة لا تدرك للساعات معنى سوى الضحك
واللعب، وكنت مغناطيساً لجمال دولا ب أيامي.

تمضي ونمضي معها، ودوام حالها من مُحالها، نعود حيث

انطلقنا، ولا أجد شيئاً مما تركته خلفي، فكله ذهب واندحر،
لكن وجود نور عيوني (أمي)، هو ما كان يضخ المياه إلى
مجرى نهر عمري.

سرتُ وسرنا، لكن ما زال فانوس الأمل ينير عندنا،
وأخذت على عاتقي إكمال طريقي لنظرة أخرى أرسمها
لحياتي، فأطلق من جديد كفرس جموح.

بُتُّ أرى الجمال من جديد، ويعود غروري، وأملِي من
جديد بعد قيلولته، إلى أن دق ذاك الجرس الذي أخذ عمري
لمنحنى جديد.

ماذا تعني لي الحياة؟

كنتُ أنا الأمرَ النهائي، لقمان عصره، بلقيس زمانها، كنت
ولن أبقى كذلك، انطفأ نور الحياة، ماتت أمل العمر، اندثر
الحلم، وجفَّ النهر، وغربت الشمس دون شروق بغياها،

وذهابها، لم أعد، وكأنني لم أكن، بُتُّ مبعثرة، محطمة كزجاج أصبح من تحطمه رذاذًا لا يُرى، كَسْرًا لا يُجبر، أصبحت لا أنا، أصبحت اللا شيء، بُتُّ كأعمى ضلَّ طريقه، ويخاف من الخروج وحده دون أيدي مَنْ هم حوله، مَنْ هم روحه، مَنْ هم حياته مَنْ هم دليله، واكتملت دائرة الظلمة عند أربعينية شتائي، اختفى الربيع، واندثر، ولم يبقَ سوى ذكراه التي أعيشها، ما يُبقيني في الحياة هو وجودهم، ووجوده، هم مَنْ ارتقوا، وكبروا، وأصبحوا حكماء عمري.

أصبح هزلُ الكلام ما يُضحكني بقهقهةٍ تافهة، وأبرد المشاهد يُبكي، أصبحت عجوزًا لا تَرى من يومها سوى لقمته، وجرعةٍ حديثٍ من هنا وهناك، ترانيم الحياة على وجهي الذي لم أعد أرى منه سوى جفاف الصحراء، وتشققات الطين حين انحبس الماء عنه، كائن عشوائي، مترهل، لا يملك للحياة نفعًا ولا يزيدُها إلا مرارة وضرًا،

ولا يؤذي إلا مَنْ أحبه ويحبه، دروس من هنا وهناك
أسمعها، ولكن ما في القلب لا يعلمه سوى رب السماء،
ليس تشاؤماً، بل واقعاً، وبكلماتي هذه عن فكري لا أدافع .

ماذا تعني لي الحياة؟

لم تعد تعني الحياة لي أيّاً من معانيها، إذ لا أعيش سوى
على ذكرياتها وماضيها، لا أدرك سوى غُصَّاتها، وبانتظار
توقف دقائقها، "تان" فقدت أولادها، وأمل برب كريم، وثقة
أن لا تفقد آخرها، حياة بالأحرى بلا حياة" .

عزيزي القارئ الذي سعت عيناه لقراءة أسطري،
حاولت أن أقدم لك إيجاز الحياة، وماذا تعني لك من ناحية
علم النفس الفردي.

ابتدأت معك من خليقة البشر، مروراً بالطفولة،
والمراهقة، وصولاً للعمل، والنضج، منتهياً وإياك بالحب
والزواج.

أود أن أخبرك أن بكل الظروف والأحوال تستمر الحياة.
أباًمكانك الآن ببساطة أن تخبرني - يا مَنْ رافقت
سطوري - الآن: ماذا تعني لك الحياة؟

عن المؤلف..

ألفريد أدلر، ولد عام ١٨٧٠ في النمسا، والده يهودي، تاجر حبوب.

ترعرع في عائلة من ستة أطفال، فكان تربيته الثاني من بين إخوته.

كان أدلر في الثالثة من عمره حين تُوفي أخوه الصغير بمرض الدفتيريا الذي سرق طفولته، فقد عانى أدلر من الكساح، وإصابة بالغة في الرئة بالربو من عمره، وحين بلغ سن الخامسة قرر أن يصبح طبيباً.

توالت الأيام وتحقق حلم أدلر ليصبح طبيباً بشرياً عام ١٨٩٤.

بالبداية تخصص بطب العيون، وبعدها حوّل اهتماماته إلى

علم النفس، فقد شكّل جماعة سمّاها (علم النفس الفردي) عام ١٩١٢، التي أكدت على أهمية الفرد في المجتمع.

سافر إلى الولايات المتحدة؛ ليتم تنصيبه أستاذ علم النفس، وقام بإصدار مجلة باسمه بعد أن أنشأ مدرسة باسمه أيضاً.

لقد وافته المنية عام ١٩٣٥ بأزمة قلبية مفاجئة خلال رياضته الصباحية، والمشي بعد انتهائه من إلقاء محاضرة لطلابه في جامعة إبرددين في اسكتلندا.

إلى هذا اليوم، ما زال أطباء علم النفس يستنجدون بأفكار ونظريات أدلر في علم النفس الفردي؛ ليصبح مُطبّقاً في عدة دول منها: الولايات المتحدة، ألمانيا، النمسا، إنجلترا، سويسرا، أستراليا، وغيرها من الدول..

كلمة المترجمة

«الحياة».

هي كلمة تتراود على مسامعك بين الفينة والأخرى، لكن هل راودك معناها؟ تبدو أحرفها معقدة ببساطتها، وصعبة بليونتها، وصلبة بهشاشتها.

إنّها الحياة التي تمنح لك أياماً تعيش فيها ذكريات من نعومة أظافرك إلى حين إلقاء السلام الأخير منها.

يقذف السؤال كصاروخ بريء فيهبط على ذهنك دون أي إجابة أو مبرر: ماذا تعني الحياة لك؟

قد يجيب هذا أنّها ذكريات، ساعات، إنجازات أو ربما أوقات تمر. وقد يجيب آخر أنّها هفوات، وعقبات، وكوايس أو حتى أحلام لن تتحقق. بين الإجابة والأخرى، تقف

العقول لتلقط ما هو الأصح من بين كل صحيح.

ولكن دعني أسألك بصدق:

ماذا تعني الحياة لك إن أدركتَ في هذه اللحظة معناها؟
لم أجبرك على الإجابة أو لم أنتظر منك حدوث ذلك البتة.
ولكنني على يقين بأنك أغمضتَ عينيك لتعيش لحظة
السؤال. فصولك إلى هذا الكتاب يعني أنك بحثتَ بين
أزقة المكتبات لتجد ما تفقده ألا وهو الحياة.

أيها القارئ الذي لامستُ أنامله صفحات هذا الكتاب،
لو لم تكن في أمس الحاجة لفهم الحياة ما عانقتَ أوراقه
بشغف. دعني أطمئنك بأنك على ما يرام إذا ما زلتَ هنا
على عتبة هذه الورقة.

ماذا تعني الحياة لك؟ هو سؤال عابر جرف خلفه العديد
من القصص والتجارب من ولادتك وتربيتك ونشأتك بين

عائلتك، وحين راهقتَ فكبرتَ فتخرجتَ لتجد وظيفة وتزوج وتكرر مراحل الحياة كبذرة كغيرها في الطور الأول من النشأة.

إنّ هذا الكتاب خير صديق لا يخونك؛ فهو دليلك ليرشدك فلسفة الحياة ببساطة بكل خطواتها، بل يقدم لك دراسات ومواقف تحتاجها دون أن تعلم. ففي كل فصل من فصوله، يطرق لك أفكاراً شتى، وآراءً لامستَ شعورك وكانتْ عابرة مرور الكرام. بل أنّ كل سطر يقدم لك حكايات قدمها طبيب النفس ليسهل لك مفهوم الحياة.

إن كانتْ تعني لك الحياة الكثير أو القليل، فالحياة أنت كاتبها، ومخرجها، ومصورها بل أنت ممثلها. فعشِ الحياة كما تحب، وكما تريد أن تكون. فالحياة كلمة تتناثر من قافيتها نوتات الزمان بدروس قاسية حيناً ولينة حيناً أخرى. اقرأ الكتاب، وأخبرني في آخر صفحة، بعد أن أدركت كل فصل

قد أحيك لأجلك بخيوط من العلم والمعرفة: ماذا تعني
الحياة لك؟

الفهرس

- ٥..... الفصل الأول: معنى الحياة.
- الظرف الاضطراري الأول.
- الظرف الاضطراري الثاني.
- الظرف الاضطراري الثالث.
- الشعور الاجتماعي.
- ٤١..... الفصل الثاني: الجسم والعقل.
- ٥٥..... الفصل الثالث: فيض المشاعر "التفوق والنقص".
- ٦٧..... الفصل الرابع: ذكريات مبكرة.
- ٧٩..... الفصل الخامس: الأحلام.
- ٩٥..... الفصل السادس: تأثير العائلة.

١٠٥..... الفصل السابع: دور المدرسة وتأثيرها.

١١٧..... الفصل الثامن: ما بين البلوغ والمراهقة.

١٢٥..... الفصل التاسع: الجريمة والسعي لمنعها.

١٣٣..... الفصل العاشر: مشكلة العمل.

القيد الأول.

القيد الثاني.

القيد الثالث.

١٤١..... الفصل الحادي عشر: الفرد والمجتمع.

١٤٧..... الفصل الثاني عشر: الحب والزواج.

١٦٢..... كلمة المترجمة.